

ملف المقرر

المادة : تاريخ النهضة الأوروبية
الكلية : الآداب و الحضارة الإسلامية
القسم : تاريخ

السنة الدراسية : 2019-2020.

الأستاذ المحاضر : بيلامي وحاد

وصف المادة :

عوامل قيام النهضة الاوروبية

❖ مظاهر النهضة الاوروبية الدينية والادبية و العلمية

❖ روافد النهضة الاوروبية

❖ الاطلاع على مخرجات الحركة الإنسانية في اوروبا

أهداف المادة :

- معرفة ماهية النهضة الأوروبية.
- *النهضة الأوروبية بين التقديس والواقع
- الحركة الانسانية
- حركة الكشوف الجغرافية وميلاد الاستعمار الأوروبي الحديث
- الاصلاح الديني وظهور العلمانية.
- احراز كم معرفي من المصطلحات واتقان استعمالها ضمن سياقها الزمني والمكاني.
- (قضية ضبط المصطلحات).

جامعة الأمير عبد القادر
كلية الآداب و الحضارة الاسلامية
قسم التاريخ
الموضوع : جدول المحاضرات
المادة : تاريخ النهضة الاوروبية .

- المحاضرة الأولى: أوروبا في العصور الوسطى .
- المحاضرة الثانية : مفهوم النهضة الأوروبية و مظاهر الانبعاث الممهدة في العصر الوسيط .
- المحاضرة الثالثة : روافد النهضة الاوروبية
أولاً: التراث اليوناني -الروماني .
ثانياً : رافد الحضارة الاسلامية .
- المحاضرة الرابعة: الجامعات في أوروبا في عصر النهضة .
- المحاضرة الخامسة: اثار الحضارة الاسلامية في النهضة الاوروبية.
- المحاضرة السابعة : حركة الكشوف الجغرافية .
- المحاضرة الثامنة : حركة الاصلاح الديني (القسم الاول :الجدو التاريخية).
- المحاضرة التاسعة : حركة الاصلاح الديني (القسم الثاني :الحركة اللوثرية).
- المحاضرة العاشرة : الآداب و الفنون في عصر النهضة الاوروبية .
- المحاضرة الحادية عشر : المنهج العلمي و الاكتشافات العلمية في عصر النهضة الاوروبية .
- المحاضرة الثانية عشر : حروب الثلاثين عاما و مراحلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

المادة : النهضة الاوروبية .

كلية الآداب و الحضارة الاسلامية

الموضوع : قائمة المصادر و المراجع

قسم التاريخ

- خليفة حماس، محاضرات في تاريخ النهضة الأوروبية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (يتم الاعتماد عليه كمقرر أساسي منذ سنة 2018 وستلم النسخة الكاملة للطلبة)
- عبد الرحيم عبد الرحمان الرحيم : التاريخ الاوروبية الحديث و المعاصر دار الكتاب الجامعي القاهرة مصر ط 2
- عبد العزيز سليمان نوار : التاريخ الحديث اوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحربى الفرنسية البروسية 1789-1871 دار الفكر القاهرة ط 1 2002
- حسن صبحي : التاريخ الاوروي الحديث مؤسسة شباب الجامعة 1982
- عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار التاريخ الاوروي الحديث من عصر النهضة الى أواخر القرن الثامن عشر دار الفكر العربي القاهرة مصر
- رونالد سترو مبرج : تاريخ الفكر الاوروي الحديث ، مترجم .
- زينب عصمت راشد ، المختصر في تاريخ أوروبا الحديثة .
- عبد الحميد البطريق : التاريخ الاوروي الحديث من عصر النهضة الاوروبية الى أواخر القرن الثامن عشر .
-
- عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة .

- نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الاوروبية .
- هربرت فيشر :أصول التاريخ الأوروبي الحديث .
- يسري الجوهري : الكشوف الجغرافية .
- نيقولو ميكافلي : الأمير ثراث الفكر السياسي قبل الأمير و بعده.
- Jean-Pierre Poussou (Auteur), Caroline Callard (Auteur), Olivier Chaline (Auteur) *La Renaissance. : Enjeux historiographiques, méthodologie, bibliographie commentée Broché –2002 .*
- *Lucien Febvre/ Michelet et la Renaissance*, edition Flammarion, 1992.
- John Hake, *The civilization of Europe in The Renaissance*, (la Civilisation de L'Europe à la Renaissance), Perrin, 1993, traduit de l'Anglais par René Guyonnet (1998),edition Seuil , 2002.
- Thomas Lepeltier, *LA Renaissance existe-t-elle? réflexion à partir de Michelet* , In la Revue des Livres , 2000.
- Jacques Le Goff , *La naissance du Purgatoire* , Ellipses , Paris , 2002.
- Jean delumeau , *LA Civilisation de la Renaissance* , edition seuil ,2012.

الموضوع: كشف توزيع درجات
المادة: أوروبا عصر

جامعة الأمير عبد القادر
كلية الآداب و الحضارة الاسلامية
النهضة
قسم التاريخ

يتم توزيع الدرجات على النحو التالي :

* أولا : عشرون (20) درجة للإمتحان .

* ثانيا : عشرون (20) درجة للتقويم المستمر .

المصدر الأول

أوروبا في العصر الوسيط

مقدمة (دخول أوروبا في العصر الوسيط) :

يعد العصر الوسيط مرحلة ذات أهمية كبرى في تاريخ أوروبا، ومرد ذلك من جهة إلى طول المدة التي دامها والمقدرة بنحو عشرة قرون، ومن جهة ثانية إلى التغيرات التي مست في أثنائه مختلف جوانب الحياة في القارة.

وكان اختراق القبائل الجرمانية التي توصف في العادة بالبربرية (BARBARE) أي الهمجية لحدود الإمبراطورية الرومانية ثم سيطرتها على أراضيها في مختلف الجهات ، أهم حدث أدى بأوروبا إلى الدخول في تلك الحقبة من تاريخها، وكان موطن تلك القبائل يوجد في البداية وراء نهر الدانوب¹ الذي يشكل الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت تحيي حياة بدائية وتتحارب فيما بينها من أجل السيطرة على مصادر الثروة وفي مقدمتها المراعي. وكانت تلك القبائل تسمى بأسماء عديدة تتميز بها بعضها عن بعض، ومنها القوط **Goths** ومنهم الشرقيون و الغربيون، والفرنجة **Franks** والهون **Huns** والوندال **Vandals** والسكسون **Saxons** والبرغنديون **Burgundians** والنورمان **Normans**.²

وكان تسرب تلك القبائل نحو الأراضي الرومانية قد بدأ في زمن يصعب تحديده. ولكن ذلك التسرب إذا كان في البداية ضئيلا وغير مؤثر على الإمبراطورية، فإنه ما لبث أن بدأ يتسع شيئا فشيئا حتى صار يتم في شكل موجات بشرية كبيرة العدد ومنظمة تنظيما عسكريا وتشتبك على الحدود مع الجيش الروماني في معارك ضارية تؤدي إلى وقوع خسائر كبيرة في الأرواح، وذلك ما حدث في عام 270 م على سبيل المثال ، حيث قتل الإمبراطور كلوديوس الذي كان يقود الجيش الروماني نحو خمسين ألفا من القوط، وأسر منهم بضعة آلاف آخرين³.

وفي الوقت الذي كانت فيه بعض القبائل تحاول أن تخترق حدود الإمبراطورية الرومانية بالقوة، فإن قبائل أخرى منها ارتأت أن تعيش مسالمة مع الرومان و تسخر نفسها في خدمة دولتهم في الميادين العسكرية والمدنية مقابل السماح لها بالعيش داخل حدود الإمبراطورية. وكان

¹ هو أحد الأنهار الكبرى في أوروبا الوسطى، طوله 2850 كلم، ويتجه في مجراه من الغرب إلى Danube نهر الدانوب الشرق، فيقطع ألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا، ويصب في البحر الأسود، ويمر على فيينا وبودابست وبلغراد.

² لمزيد من التفاصيل حول تلك القبائل راجع : الحريري (محمود محمد)، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، القاهرة، دار المعارف، 1981، ص 77-151.

³ المصدر نفسه، ص 114.

يطلق على تلك القبائل اسم القبائل المسالمة أو المعاهدة⁴ . وقد استخدم قسطنطين الكبير في عام 325 م أربعين ألف منهم في تشييد مدينة القسطنطينية⁵ . و على أيدي هذه القبائل المسالمة وقعت نهاية الإمبراطورية الرومانية كما سنرى فيما بعد.

وفي الواقع فإن الإمبراطورية الرومانية صارت منذ أواخر القرن الرابع الميلادي تواجه أخطار أخرى داخلية علاوة على الخطر الخارجي الذي كانت تشكله عليها القبائل الجرمانية. و كان أحد تلك الأخطار و أكثرها أثرا كما أكد الباحثون المختصون ، يتمثل في الانهيار الاقتصادي الذي أصاب الإمبراطورية بسبب قلة الموارد المالية التي كانت تحصل عليها من معادن الذهب و الفضة التي توجد في إسبانيا واليونان . فبعدها كانت عوائد تلك المعادن تبلغ في أوائل القرن الأول الميلادي نحو ثلاثمائة و ثمانين مليون ليرة ، فإنها صارت في أوائل القرن السادس لا تتجاوز ثمانين مليوناً. ولكي تسد السلطة الرومانية العجز المالي الذي صارت تعاني منه فإنها كانت تلجأ إلى تخفيض قيمة العملة و زيادة الضرائب . ولكن تلك السياسة لم تجد نفعاً ، و أدت إلى نتائج سلبية أضرت بالاقتصاد الروماني بشكل عام . وظهر ذلك في تدهور الصناعة و الزراعة معا ، فأغلقت الورشات وأهملت المزارع و صار الرومان يعتمدون في حياتهم على ما يأتيهم من منتجات من أقاليم خارج أوروبا مثل مصر و إفريقيا⁶ .

و قد رافق ذلك التدهور الاقتصادي تدهور آخر سياسي تمثل في ضعف مؤسسات الإمبراطورية و زيادة التنافس بين أصحاب النفوذ بها. و قد ظهر ذلك بشكل واضح عندما توفي الإمبراطور تيودوسيوس في عام 395 م ، حيث انقسمت الإمبراطورية إلى شطرين ، أحدهما شرقي في القسطنطينية ، و آخر غربي في روما و أحيانا في رافينا القريبة منها⁷ .

و في ظل ذلك الوضع الخطير الذي آلت إليه الإمبراطورية الرومانية ظهر تغلب القبائل البربرية عليها ، و صارت تخترق حدودها و تقتطع أراضيها و تسيطر على مدنها دون أن تجد من يصددها. و قد ظهر ذلك التغلب واضحاً في عام 410 م حيث تمكن القوط الشرقيون بقيادة ملكهم آلاريق من السيطرة على روما نفسها بعدما حاصروها مدة سنة ونصف . و لما دخلوها قاموا بنهب كنوز الرومان التاريخية و حرق معالمهم الحضارية.

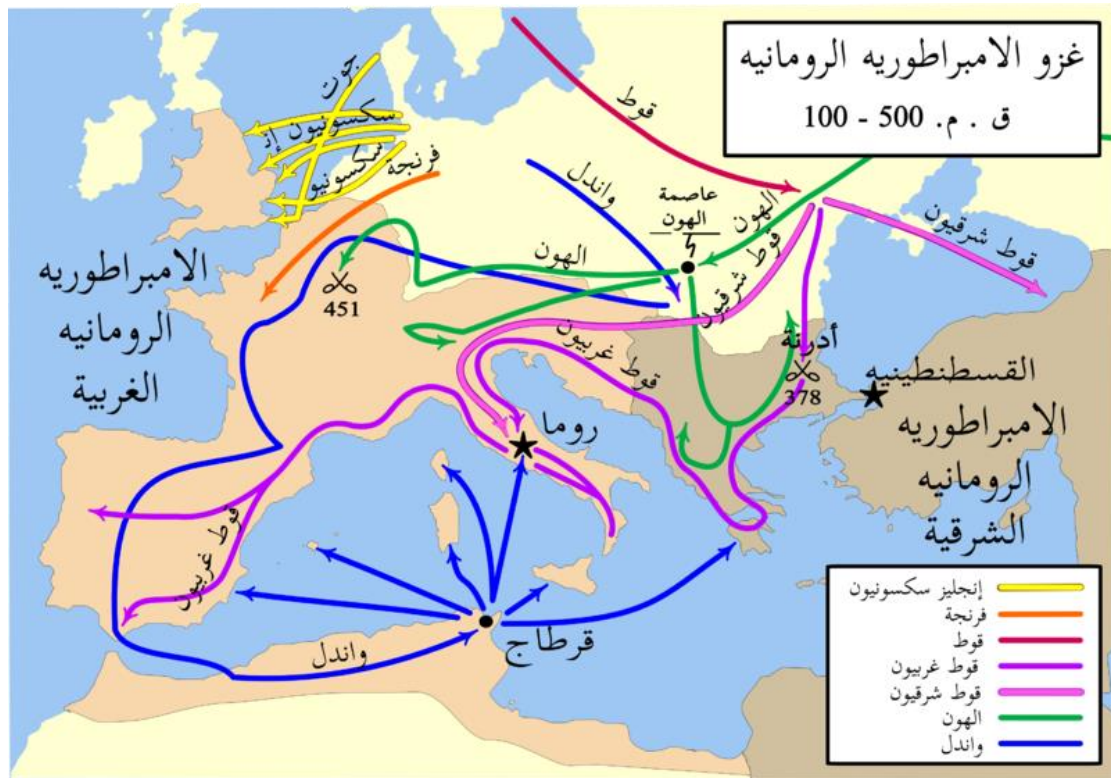
4 العريني (السيد الباز)، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، من غير تاريخ، ص 103-104.

5 المصدر نفسه، ص 77.

6 Dampier (W.), *Histoire de la science*, tr. De René Sudre, Paris, Payot, 1951, pp 104-107.

7 الحريري، المصدر السابق، ص 155-157.

ولكن خطر القبائل الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية لم يقتصر على اجتياح الأراضي واستباحة المدن فقط، وإنما تجاوزه إلى التسرب داخل أجهزة الحكم كذلك، ومنها الجيش الذي استطاع البرابرة أن يتقلدوا رتبه حتى تولوا زمام القيادة العليا فيه كما حدث على يد ستيليكو الوندالي في عهد الإمبراطور هونوريوس (395-423 م)، ثم على يد أودواكر القوطي في عهد الإمبراطور رومولوس (475-476 م). وذلك القائد القوطي (أي أودواكر) هو الذي وضع حدا نهائيا لوجود الإمبراطورية الرومانية في عام 476 م، حيث عزل الإمبراطور رومولوس من سدة الحكم وعين نفسه حاكما مكانه. وبذلك العمل صارت الإمبراطورية الرومانية حدثا مطويا من أحداث التاريخ.



وترتب عن ذلك نتائج سياسية واجتماعية ودينية وثقافية خطيرة جعلت أوروبا تعيش تأخرا حضاريا مرعبا طوال عشرة قرون، مما جعل المؤرخين في العصر الحديث يصفون تلك الحقبة من تاريخ أوروبا بالمظلمة، وأطلقوا عليها اسم العصر الوسيط تمييزا لها عن العصر القديم قبلها والعصر الحديث بعدها. وعبارة "العصر الوسيط" في العربية هي مقابلة لعبارة **le moyen age** في الفرنسية، و **the middle ages** في الأنكليزية.

ولكي تكون لدينا صورة واضحة عن الوضع العام في أوروبا في ذلك العصر، نحاول أن نتناول هنا بعض النتائج التي أشير إليها.

أولا : النتائج السياسية والاجتماعية :

كانت أبرز نتيجة سياسية ترتبت عن سقوط الإمبراطورية الرومانية قد تمثلت في غياب سلطة مركزية تجمع شمل القارة وتنظم الحياة العامة بها. وظهر بدلا من ذلك كيانات سياسية متفرقة تمثلها بعض القبائل الجرمانية المتناحرة فيما بينها وغير المستقرة، وكان منها القوط الشرقيون في إيطاليا، وإخوانهم الغربيون في إسبانيا، والفرنجة في غالة، والروميون في بافاريا وألمانيا⁸. وفي ظل ذلك الوضع ظهر النظام الإقطاعي الذي أعاد تنظيم شؤون الحياة ورتب العلاقات في القارة وفق معطيات ذلك العصر. والنظام الإقطاعي **le Féodalisme** يصعب في الواقع تعريفه تعريفا جامعا مانعا، بسبب تعدد أشكاله من منطقة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر، حتى أن من المؤرخين من قالوا بأن أشكاله بلغت المائة⁹. ولكن مع ذلك يمكن القول بأنه نظام ظهر في أوروبا لينظم شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بها بعد هجوم القبائل الجرمانية على ممتلكات الإمبراطورية الرومانية والقضاء على مؤسساتها. وكانت القاعدة التي أسس عليها ذلك النظام بأن هاجرت الأسر الكبيرة من المدن التي كانت تسكنها في العهد الإمبراطوري إلى الأرياف بعد الغزو الجرمني، وبنوا لأنفسهم قصورا محصنة وسط ضيعات واسعة اشتروها أو ملكوها بوسائل مختلفة، ووفروا لأنفسهم من يخدمهم ويحميهم بها. وبذلك حل الريف محل المدينة في تنظيم الحياة العامة في أوروبا، وصار الاقتصاد الذي يشكل محور تلك الحياة، مبنيا على ما تدره ضيعات الإقطاعيين من منتجات زراعية وحيوانية بدل ما كانت تنتجه ورشات الصناعة في المدن من أدوات وآلات، وما يحدث في الأسواق على أيدي التجار من مبادلات في السلع ومعاملات في الأموال. وصار الإنسان وفقا لذلك النظام ليس بإمكانه أن يكون سوى سيد أو مسود، مهما كان المكان الذي اختاره لكي يستقر فيه والوظيفة التي رآها مناسبة له لكي يتخصص فيها، وحتى ملاك الأراضي الصغيرة فقد اضطروا في ظل ذلك النظام إلى اللجوء إلى أمراء الإقطاع ليضموا أراضيهم إلى إقطاعاتهم وفق شروط معينة تعينهم على الحياة مثل تأمين أنفسهم والحصول على وسائل الإنتاج. ومن ثمة فإنه كان من الطبيعي أن يؤدي النظام الإقطاعي إلى تمركز ملكية الأراضي في القارة في أيدي فئة قليلة من الناس، وه السادة أو أمراء الإقطاع، وفي مقابل ذلك حرمت الأثرية الساحقة من أية ملكية، وهم الأقتان.

وقد توزع الناس وفق ذلك النظام في أوروبا إلى طبقات يتحدد الإنتماء إليها بحسب نوع العمل الذي يقوم به كل فرد في الضبعة التي يقطن بها. وكان العبيد يشكلون أدنى تلك الطبقات، وكان

⁸ المصدر نفسه، ص 105 وما بعدها. العريني، المصدر السابق، ص 111 وما بعدها.

⁹ ديورانت (ول)، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، جامعة الدول العربية، طبعت مختلفة، م 4، ج 3، ص 406.

أغلبهم يتشكل من أسرى الحروب التي تحدث داخل أوروبا بين أمراء الإقطاع، أو على الحدود مع البلاد الإسلامية أو مع البلاد التي كانت لا تزال تسكنها القبائل الجرمانية الوثنية شمالي القارة. وكان هؤلاء العبيد يستخدمون في أعمال مختلفة داخل الضيعة وخارجها، ومنها الأعمال المنزلية والمشاركة في الحروب.

وكانت الطبقة الثانية يشكلها الفلاحون، وهم الأقنان أو رقيق الأرض. وكان عملهم فلاحية الأراضي التابعة للسيد الإقطاعي مقابل الحصول على نسبة من الإنتاج الزراعي والحيواني الذي يجنونه بأنفسهم منها، لكي يقتاتوا به هم وأفراد عائلاتهم. وعلاوة على فلاحية الأرض فإن الفلاحين كانوا يقومون بأعمال أخرى يشترطها عليهم أسيادهم ومنها حفر الخنادق وشق الطرق والخروج لمحاربة العدو. وكان الفلاحون مرتبطين بقوانين تشدهم بقوة إلى أسيادهم ولا تعطيهـم حرية التفكير في تغيير نمط حياتهم، إذ كان السيد لا يسمح لهم باستخدام أدوات إنتاج غير أدواته، ولا بتكوين علاقات أسرية خارج الضيعة التي يقطنون بها من غير موافقته، ولا أن يرفعوا قضاياهم إلى محام أخرى غير محكمته، وأما إذا وجد لديهم فائضا في الزاد والممتلكات فإنه يصادره منهم. وكان الفلاحون مع ذلك كله يتلقون أوامره بخضوع تام وينفذونها دون اعتراض. وقضت تلك السياسة أن يعيش الفلاحون منعزلين داخل الضيعات وسط أكواخ يصنعونها من الطين ويغطونها بسقوف من أغصان الأشجار، ويلبسون ثيابا غليظة تنتجها النساء في البيوت، وأما عيشهم فكان أساسه الخبز.

وأما الطبقة الثالثة فكان يمثلها الفرسان، وكان نشوء هذه الطبقة بسبب حاجة السيد الإقطاعي إلى حماية نفسه والدفاع عن ضيعته ضد الأعداء. ومن ثمة كان على الشخص الذي يريد أن يكون فارسا أن يمتلك حصانا وأسلحة للقتال، ويشترط فيه أن يكون ذا بنية جسدية قوية وله قدرة على المغامرة. وكان الفرس قبل أن يدخل في خدمة سيده عليه أن يؤدي يمين الولاء له بأن يخدمه بإخلاص ويلبي أوامره في جميع الظروف وبصفة خاصة إبان الحروب. وكان السادة من جانبهم يحرصون دائما على كسب ود فرسانهم وإرضائهم بأن يخصصهم ببعض الإقطاعات ليتولوا الإشراف عليها نيابة عنهم والاستفادة من نسبة من مردودها.

وأما الطبقة الرابعة، وهي أعلى الطبقات، فكان يمثلها الأسياد الذين يملكون الإقطاعات. وكانت وظيفتهم تتركز على تسيير شؤون الضيعات الإقطاعية ومراقبة ما يجري بها من أعمال على أيدي الفلاحين والعبيد والفرسان. ذلك بالإضافة إلى الإشراف على النظام العام داخل الضيعات والدفاع عنها ضد الأعداء.

وأما الملك في أوروبا في العصر الوسيط فكان يترأس السلطة الزمنية مثلما يترأس البابا السلطة الدينية. وكان هو الحاكم على أمراء الإقطاع الموجودين في مملكته، ومن حقه استدعاؤهم للقدوم إليه بما يملكونه من قوات عسكرية للتوجه تحت قيادته لخوض المعارك . وفيما عدا ذلك فإن سلطة الملك لم تكن تتجاوز حدود ضيعته الشخصية، إذ أن كل سيد أو أمير إقطاع كان له من النفوذ في ضيعته ومن القوة العسكرية ومن أدوات الإنتاج ما يجعله مستقلا عن الملك الذي يتبعه، حتى أنه كان بإمكانه أن يعلن الحرب بنفسه ويعقد المعاهدات مع أمثاله من الأمراء دون الرجوع إلى الملك.

ثانيا : النتائج الدينية

كانت أبرز نتيجة دينية ترتبت عن سقوط الإمبراطورية الرومانية قد تمثلت في وجود مذهبين مسيحيين في أوروبا، أحدهما كاثوليكي يمثله الرومان، وآخر أريوسي يمثله القبائل الجرمانية الغازية. ذلك بالإضافة إلى الديانة الوثنية التي كانت بعض القبائل الجرمانية لا تزال تدين بها، وبشكل خاص في شمالي القارة. ولكن الوحدة الدينية في أوروبا لم تلبث أن بدأت تستعيد وجودها عندما ارتقى عرش بيزنطة الإمبراطور جستنيان في عام 527 م، وأبدى حماسا شديدا لإعادة بعث الإمبراطورية الرومانية والقضاء على الكيانات السياسية التي أوجدتها القبائل الجرمانية على أنقاضها. ومن ثمة أرسل في عام 533 م حملة عسكرية بقيادة بلزاريوس إلى إفريقيا خلصتها من سيطرة الونداليين. وبعد عامين من ذلك بدأ جستنيان حربا واسعة النطاق في إيطاليا دامت ثمان وعشرين سنة ضد القبائل القوطية، وانتهت بانتصار البيزنطيين ومعهم الكنيسة الكاثوليكية¹⁰. ولكن الدعم الذي تلقته الكنيسة الكاثوليكية ضد المذهب الأريوسي والديانة الوثنية معا قد وجد فعاليته الكبرى على يد أحد زعماء القبائل الجرمانية نفسها، وهو كلوفيس زعيم الأسرة الميروفنجية التي كانت تحكم في أواخر القرن الخامس في غالة (فرنسا حاليا). وحدث ذلك عندما أعلن ذلك الملك الجرمني اعتناقه الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وتبعه في ذلك أفراد أسرته ورعيته جميعا. وبذلك وجدت الكنيسة الكاثوليكية بروما سندا سياسيا وعسكريا لها في أوروبا، وتحصلت على الوسائل المادية والمعنوية لاستعادة نفوذها الشامل في مختلف أنحاء القارة

وقد صار للكنيسة في العصر الوسيط ممتلكات شاسعة في مختلف أنحاء أوروبا تجنى منها عوائد مالية كثيرة، حتى قال أحد المعاصرين للبابا يوحنا الثاني والعشرين (1316-1334 م) وكان

10 العريني، المصدر السابق، ص 128 وما بعدها.

شديد التردد عليه في القصر : "ما من مرة دخلت قصر البابا إلا ووجدت الكهنة منكبين على عد النقود الذهبية التي جمعت على شكل كوم فوق طاولة أمامهم"¹¹. أما شارلكان ملك إسبانيا (1516-1556م) فنسب إليه القول بأن البابوية كانت تجمع الأموال في ألمانيا التي كانت تابعة لدولته أكثر مما يجمعه هو¹². وكان للكنيسة أجهزة إدارية ضخمة تشرف على إدارة تلك الممتلكات وتنظم العمل في مختلف المؤسسات الدينية والتعليمية والخيرية التابعة لها وقد استغل رجال الدين النفوذ الروحي الذي كان لهم في المجتمع والإمكانات المادية التي حصلوا عليها لخدمة مصالحهم الشخصية، حتى صاروا يشكلون طبقة اجتماعية مميزة في أوروبا لا يضاهاها في مستوى العيش وحجم الثروة سوى الملوك والأمراء ومن لهم علاقة ببلاطاتهم. وقد أصبح في العصر الحديث من الشائع جدا وصف رجال الكنيسة وعلى رأسهم الباباوات في المؤلفات التاريخية، بالزيف عن أخلاق الدين وإصاق صفات الغش والجهل وكل مظاهر الفساد بهم. ولدينا أمثلة على عدد منهم في أواخر العصر الوسيط.

فهذا البابا كاليكست الثالث **Calixte III** (1455-1458م) لم يمض على تعيينه سوى عشرة أشهر حتى رفع إلى مقام الكاردينالية اثنين من أبناء اخوته، وكان أحدهم هو رودريكو بورجيا الذي كان منحرفا حتى أنه كان له عشيقات كثيرات، ولكن البابا مع ذلك منحه أعلى المناصب في البلاط البابوي، فعينه نائبا لرئيس الحكومة البابوية ثم قائدا لقواتها المسلحة¹³. وبذلك هيا له الظروف لكي يرتقي في عام 1492م إلى منصب البابوية باسم إسكندر السادس¹⁴. ومما اشتهر به هذا البابا (أي إسكندر السادس) ميله لأبناء وطنه الأسبان، فحشد منهم أعدادا كبيرة في إدارات البابوية حتى صارت مائة بابوية غير كافية لاستيعابهم كما ذكر أحد المعاصرين آنذاك¹⁵.

ولكي يظهر رجال الكنيسة بمظهر العصر ويتباهوا بمناصبهم ومراكزهم أسوة بالملوك والأمراء، فإنهم بنوا لأنفسهم قصورا فخمة ليعيشوا فيها وسط بلاطات ضخمة تضم عددا كبيرا من الخدم، وإلى جانبهم شعراء وفلاسفة وفنانون. ولكن توظيفهم لهؤلاء المثقفين في بلاطاتهم تلك لم يكن من باب الاهتمام بالثقافة والعلم، وإنما لإضفاء الأبهة فقط كما يفعلون بحيوانات الزينة التي

¹¹ Faure(Paul), La Renaissance, coll. Que Sais-Je ? N° 345, 4^eéd. , Paris, P.U.F., 1965, p15.

¹² Moreau(E.de), La crise religieuse du 16^e siècle, Paris , Bland et Guy, 1950, p 9.

¹³ ديورانت، المصدر السابق، م 5، ج 3، ص 41-42.

¹⁴ المصدر نفسه، ص 80.

¹⁵ Mousnier(Roland), La Renaissance en Italie au 16^e siècle, Paris, C.P.U.,s.d., p 92.

يربونها في تلك القصور. وكأمثلة على فخامة تلك البلاطات فإن أحد الكرادلة كان له بين عامي (1526-1527م) بلاط يتكون من ثلاثمائة وستة أشخاص، وكردينال آخر كان بلاطه يتكون من مائتين وخمسة وسبعين شخصا. وعلى ذينك المثالين تقاس بلاطات جميع الكرادلة الأربعين الذين يشكلون جهاز الإدارة البابوي في روما¹⁶. وأما البابا ليون العاشر (1513-1521 م) الذي اشتهر بحبه للموائد ذات الأطعمة الفاخرة، وميله الشديد إلى ارتداء الثياب الرفيعة المرصعة بالجواهر الثمينة، بالإضافة إلى حبه سماع الموسيقى ومشاهدة المسارح¹⁷، فإن بلاطه كان يتكون من سبعمائة شخص. ولذلك عرف عنه بأنه كان أحد أكثر الباباوات إنفاقا للأموال، حتى قيل بأنه أنفق ثروات ثلاثة باباوات، وهي ثروة سلفه يوحنا الثاني (1503-1513م) الذي ترك عند وفاته في خزانة الفاتيكان مبل سبعمائة ألف دوقة، وثورته هو شخصيا، ثم ثروة خلفه أدريان السادس (1522-1523م) لأنه عندما توفي في عام 1522 م ترك دينا على خزينة الفاتيكان يقدر بأربعمائة و عشرين ألف دوقة، وهو المبلغ الذي كانت تبلغه عوائد البابوية آنذاك¹⁸.

و أما البابا يوحنا الثاني (1503-1513 م) فإن أبهته كانت أكثر ما تظهر في الأموال التي كان ينفقها في تزيين غرف إقامته والألبسة التي يرتديها والحلي التي يتزين بها. وقد ذكر عنه بأنه دفع مرة مائتي فلورين، وهو مبلغ ضخم في عهده، من أجل شراء قماش حرير وردي اللون يزين به سريره. وكان له خبيران في صناعة الألبسة، أحدهما فرنسي يلبسه على الزي الفرنسي، وآخر إيطالي يلبسه على الزي الإيطالي. وقد دفع لهذا الخبير الأخير في عام 1512م مبلغ أربعمائة وثمانين دوقة، وذلك في وقت كانت خزينة الفاتيكان تعاني إفلاسا تاما أجبر البابا بسببه إلى إرسال حليه الفضية إلى دار الضرب لكي تصنع نقودا. وبخصوص الحلي فقد ذكر عنه بأنه عندما تولى منصب البابوية فإنه أصدر أمرا لمنع نساء روما من التزين بأكثر من خاتمين، بينما كانت يدها هو شخصا مرصعتين تماما، وأنه دفع من أجل حجر واحد من الألماس مبلغ ألف وثمانمائة دوقة، وهو مبلغ يساوي ثلاثة ملايين فرنك بعملة اليوم. وقيل عنه كذلك بأنه صنع تختين، وكان أحدهما براقا بالذهب والألماس حتى أن أحد المعاصرين شبهه بالسماء عندما تكون النجوم في أشد لمعانها. وأما ابنته عندما زوجها لحاكم مدينة روما، فإنه لم يشتري لها الحلي مثلما فعل البابا

16 المصدر نفسه، ص 27.

17 Larivaille(Paul), le 16^e siècle italien, paris, Seghars, 1971, p 20.

18 المصدر نفسه، ص 22.

اسكندر السادس مع ابنته كذلك، وإنما استدعاها إلى مقر الفاتيكان وأعطاهما من الجواهر ما يعجبه هو ويحب أن يتزين به منها¹⁹.

وقد سجل المؤرخون زيادة عدد العاملين في مقر البابوية من عهد إلى آخر، فكان مائتين في عام 1278م وصار أربعمئة وخمسين في عام 1308-1309م، ثم ستمائة وأربعة وستين في عهد البابا كليمنت السادس (1342-1352م). وعلى الرغم من نقص عدد السكان في أوروبا بمقدار الثلث في النصف الثاني من القرن الرابع عشر بسبب الأوبئة، فإن عدد الموظفين في مقر البابوية لم يتأثر كثيرا، فبلغ ستمائة وأربعة عشر في عهد إينوسنت السادس (1352-1362م)، وخمسمائة وتسعة وثمانين في عهد غريغوار الحادي عشر (1370-1378م)²⁰. وستمائة وخمسين في بداية عهد سيكست الرابع (1371-1378م)²¹.

وكمثال على المبالغ التي كان رجال الكنيسة يشترون بها وظائفهم، فإن ألبير برادنبورغ الذي عينه البابا ليون العاشر رئيس أساقفة في مدينة ماغدبورغ بألمانيا، كان عليه أن يدفع عشرة آلاف دوقة مقابل المنصب، وأربعة عشر ألف دوقة مقابل المنصب، وأربعة عشر ألف دوقة أخرى مقابل لباس الوظيفة الرسمي الذي يطلق عليه اسم

" باليوم"²². ولما وجد الأسقف المذكور نفسه عاجزا عن توفير ذلك المبلغ الضخم فإنه لجأ إلى رجل الأعمال الشهير آنذاك في ألمانيا وهو يعقوب فوجر، فأقرضه المبلغ المذكور مقابل أن يطلب من البابا الموافقة على تنظيم حملة لبيع صكوك الغفران يخصص نصف عوائدها لبناء كنيسة القديس بطرس في روما، والنصف الآخر لرد الدين المشار إليه. وقد وافق البابا على ذلك الطلب، وكانت تلك الموافقة بمثابة الفتيل الذي أوقد في عام 1517م نار حركية الإصلاح الديني في ألمانيا، ثم في أوروبا بشكل عام كما سنبينه في محاضرة منفردة.

وبالإضافة إلى فساد الأخلاق والانتهازية فإن ما اتصف به رجال الدين في العصر الوسيط كان الجهل وإهمال الواجبات الدينية كما تشهد على ذلك أحداث تاريخية كثيرة. فيذكر عن روبير فون سيمرن أسقف ستراسبورغ بألمانيا بين عامي 1440-1478م بأنه لم يقم ولو مرة واحدة طوال

¹⁹ Beentano(Franz-Funck), La Renaissance, Paris, Fayard, 1953, pp 301-302.

²⁰ Chauu(Pierre), Le temps des Réformes, 2° éd., Paris, Complexe, 1984, p 224.

²¹ ، المصدر السابق، ص 35. Mousnier.

²² ، المصدر السابق، ص 41. Moreau.

مدة وظيفته شعائر الأسرار المقدسة، وكان بالإضافة إلى ذلك لا يقدم قربان الخميس المقدس سوى مرة في السنة كما يفعل العلمانيون تماما²³.

وفي أوائل القرن السادس عشر سجل المفكر الإنساني إيراسموس الذي اشتهر بأدبه المعبر وميله إلى الإصلاح الديني، نصوصا تاريخية ذات قيمة كبيرة في وصف مستوى التعليم لدى رجال الدين في ذلك العصر ومدى كفاءتهم في أداء وظائفهم الدينية. وقد سجل تلك النصوص في كتابه "مدح الجنون" الذي أصدره في عام 1510م. وقال في واحد منها "أن أغلب رجال الدين منحرفون عن الديانة المسيحية ... ويتصفون بالأمية وجهل الآداب حتى أنهم يرددون في صلواتهم تراويل لا يفهمون معانيها، وبأصوات تشبه نعيق الحمير، ويعتقدون أنهم يؤدون طقوسا دينية"²⁴.

ولكي تفرض الكنيسة الكاثوليكية على المجتمع منهجها في الممارسة الدينية وفي التفكير، وتمنع ظهور الأفكار الجديدة المخالفة للنصوص التي أقامت عليها توجهها العقدي، وبنيت عليها فلسفتها في فهم الحياة وتوجيهها، فقد أوجدت تهمة "الهرطقة" *hérésie*²⁵، ويقصد بها الخروج عن الدين القويم واعتناق مذهب آخر إلحادي، أو بشكل عام مناف للديانة المسيحية وغير سليم. ثم أسست الكنيسة محاكم التفتيش « *L'inquisition* »²⁶ التي أسندت إليها مهمة متابعة المتهمين بالهرطقة ومعاقبتهم وفق ما يقضي على وجودهم في المجتمع.

ثالثا : النتائج الثقافية :

من المعروف لدى المؤرخين أن أوروبا قد شهدت في العهد الروماني ازدهارا كبيرا في الثقافة والتعليم. فكانت المدارس توجد في أغلب مدنها، وكان معلموها يختارون بمسابقة، ويعزلون في حالة عدم ثبوت كفاءتهم. وكان التعليم آنذاك منظما على ثلاث مراحل ، أولها المرحلة الابتدائية التي يدرس فيها الطلبة والطالبات بين سني السابعة والحادية عشرة أو الثانية عشرة، ويتلقون فيها مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ويتعودون على حفظ النصوص، ثم المرحلة الثانوية التي يلتحق بها الطلبة والطالبات حتى سن الخامسة عشرة، ويدرسون فيها الآداب ويتعلمون القواعد، وأخيرا

²³ ، المصدر السابق ،ص 8. Moreau

²⁴ ، المصدر السابق ،ص 112. Beentano

²⁵ بمعنى الإختيار. وصارت تعني دراسة مذهب فكري *hairesis* : هي كلمة مشتقة من الأصل اليوناني *hérésie*هرطقة يختار بحرية. ثم أصبحت تعني مذهبيا خاصا يتبعه الإنسان في الحياة، ولكن معناها توسع وصار يقصد به الأفكار والآراء الباطلة التي يبنها المنحرفون عن الدين السليم، وبشكل خاص تلك التي تشكل في المبادئ التي تقوم عليها العقيدة أو تنفيها. وبمعنى آخر هي الكفر.

²⁶ بمعنى البحث عن شيء بحرص شديد *Inquisitio* هي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية *Inquisition*محاكم التفتيش ومراقبته.

المرحلة العليا التي يلتحق بها الطلبة والطالبات حتى سن العشرين، ويتعلمون فيها التعبير والخطابة في موضوعات يختارها لهم الأساتذة حول مظاهر الحياة في ذلك العصر²⁷.

ولكن الغزو الجرمني الذي اجتاحت أوروبا وأدى إلى القضاء على الإمبراطورية الرومانية في عام 475م، قد نتج عنه انهيار نظام التعليم الروماني، وصارت الثقافة والتعليم بعد ذلك عنصرين ثانويين في تشكيل حياة الفرد الأوروبي. إذ أن ذلك الفرد الذي كان في العصر الروماني يحلم بالعضوية في مجلس الشيوخ للدفاع عن مصالح الشعب ومعالجة قضايا الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية، ويحاول أثناء ذلك استخدام غاية ما يمكنه من دقة في التعبير البلاغي وقواعد المنطق لتبليغ أفكاره وإقناع مستمعيه، أو هو ذلك الشخص الذي يحسن الحسابات المالية والتقنيات الإدارية في أجهزة الدولة أو في المتاجر والورشات، أو يقوم بغير ذلك من الأعمال التي تتطلب ثقافة خاصة وتكونا منهجيا، أقول أن ذلك الشخص قد صار في العصر الوسيط على غير تلك الصورة تماما، إذ أصبح في أغلب حياته مرتبطا بالضيعة التي يعيش فيها سواء باعتباره قنا يفلح الأرض، أو فارسا يتربح أوامر الحرب، أو أميرا اقطاعيا يسعى لكسب الأراضي وبناء القصور المحصنة التي يحمي نفسه فيها ويخزن الثروات في دهاليزها. ومن ثمة بات لا مجال للثقافة والتعليم في المجتمع الأوروبي.

غير أن الكنيسة بكونها مؤسسة دينية مكلفة بالسهر على إقامة الشعائر الدينية ونشر الديانة المسيحية بين القبائل الجرمانية الوثنية، قد خفت من تدهور الثقافة والتعليم في القارة في العصر الوسيط، وإن لم تنهض بهما نهوضا مرضيا كما كان في العهد الروماني، أو صار بعد ذلك في العصر الحديث. وذلك لأن المدارس التي أقامتها الكنيسة في الأديرة ومختلف مؤسسات العبادة التابعة لها في المدن كان هدفها في أغلب الأحيان تكوين موظفين دينيين تقتصر أعمالهم على التعليم الديني وإقامة شعائر العبادات، وكل ذلك يكاد لا يخرج عن قراءة الإنجيل وترتيل الترانيم وتحديد أيام الأعياد. ولذلك فقد صدق أحد الأساتذة المختصين عندما قال بأن تلك المدارس كان يدخل إليها الإنسان طفلا فيخرج منها رجل دين²⁸.

وعلى العكس عما كان موجودا في العهد الروماني، فإن تلك المدارس الدينية كانت ذات مستوى واحد في التعليم، وقليل منها فقط يمكن اعتباره مدارس عالية، وهذه لم تكن موجودة في المدن

²⁷ Léon(Antoine), *Histoire de l'enseignement en France*, coll. Que sais-je ? N°393, Paris, P.U.F., 1977, pp 7-10.

²⁸ Irsay (Stéphen d'), *Histoire des universités*, Paris, August Picard, 1933, T.1, p 40.

الكبرى فقط، وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض المناطق مثل ألمانيا لم تكن موجودة بها تماما مثل تلك المدارس العالية²⁹.

وبخصوص المواد التي كانت تدرس بتلك المدارس فإنها كانت منحصرة في المواد التي يحتاج إليها رجل الدين في تأدية وظيفته ، وتكاد تكون مقتصرة على اللغة اللاتينية التي يقرأ بها الإنجيل والنصوص المقدسة ووثائق الكنيسة ، ثم الحساب الذي تحدد به أيام السنة والأعياد، ثم الموسيقى التي يردد بها الأناشيد، ثم المنطق الذي يستخدم في شرح الأفكار وإقناع الخصوم³⁰. وكما تشهد عليه أحداث ذلك العصر فإن تلك المدارس كانت تكون أشخاصا ذوي مستوى ضعيف في المعرفة، حتى وإن تعلق الأمر برجال الدين. وقد رأينا بهذا الخصوص شهادة المفكر الإنساني إيراسموس في أوائل القرن السادس عشر³¹. ويجدر الإشارة هنا كذلك إلى هرمان دو فياد **Herman de Wied** الذي كان قسا شهيرا في كولونيا بألمانيا، ولكنه مع ذلك كان يطلب ترجمة النصوص الدينية من اللاتينية إلى الألمانية لكي يفهم معناها³².

وبالإضافة إلى قلة انتشار تلك المدارس الدينية وضعف برامج التكوين بها، فإن ما أسهم أكثر في تدهور مستوى التعليم والثقافة في أوروبا في العصر الوسيط كان يتمثل في الموقف العدائي الذي أبدته الكنيسة تجاه التراث المعرفي القديم الذي تركه علماء اليونان والرومان. إذ اعتبرته انتاجا وثنيا لا يؤمن أصحابه بالله ولا يذكرونه في أعمالهم ، وعليه فلا يحل للمسيحيين المؤمنين الإطلاع عليه والاستفادة منه، وبصفة خاصة إذا تعلق الأمر بدراساتهم الدينية. وبذلك الموقف السلبي كانت الكنيسة قد صنعت هوة عميقة بين مراحل التاريخ الأوروبي بشكل خاص والإنساني بشكل عام ومنعت التواصل بين الحضارات في قارة أوروبا، ووفرت بذلك أحد العوامل الكبرى الباعثة على التخلف العلمي والانحطاط الثقافي والجمود الفكري في أوروبا طوال العصر الوسيط. وحسبما تذكر المصادر فإن ذلك الموقف ليس وليد العصر الوسيط وإنما يرجع إلى العهد الروماني ذاته، وبالتحديد إلى عام 398 م، عندما منع المجمع الكنسي الرابع الذي عقد في قرطاجنة القساوسة من قراءة مؤلفات عالم اللغة الروماني جونتيل **Gentils**³³. ثم تلاه بعد

²⁹ Verget (Jacques), *les universités au Moyen Âge*, Paris, P.U.F., 1973, pp 11-12.

³⁰ Garin (Fugénio), *l'Education de l'homme moderne*, Paris, Fayard, 1968, p 45. Sartiau (Félix), *Foi et science au Moyen Âge*, Paris, F. Rieder, 1926, pp 47-48.

³¹ راجع الفقرة المتعلقة بالهامش 41؟؟؟؟ أعلاه.

³² ، المصدر السابق، ص 8. Moreau.

³³ لم نعثر في الموضوعات والقواميس التي استخدمناها على ترجمة لذلك العالم اللغوي الروماني.

ذلك إعلان البابا غريغوار (590-604 م) بقوله : "إني أحرص على تجنب التشويش الذي يحدثه البرابرة باستمرار (ويقصد بذلك تشويش العلماء الوثنيين على المسيحيين)، وأكره التراكيب اللغوية الصحيحة والظروف لأنني أرى من غير اللائق أن يخضع كلام الله لقواعد الضبط والأساليب اللغوية التي وضعها دونات"³⁴. وكان دونات **Donatus** أحد علماء اللغة الرومان في القرن الرابع الميلادي، وقد معرض مع بريسيان **Priscien** (الذي كان لغويا مثله في القرن السادس ومن مواليد إفريقيا وله مؤلفات عديدة في اللغة) لانتقادات شديدة من لدن الكنيسة لأنهما كانا لا يذكران الله في مؤلفاتهما³⁵. ومعنى أنهما كانا لا يذكران الله أنهما كانا غير مؤمنين به ، وبمعنى آخر أنهما وثنيان.

وعندما بلغ البابا غريغوار أن أحد القساوسة في فيينا يعلم قواعد اللغة اللاتينية لبعض الأشخاص بالاعتماد على مؤلفات هؤلاء العلماء، أرسل يقول له : "إني لأخجل من إعادة ما بلغني عنك بأنك تدرس بعض الأشخاص قواعد اللغة (اللاتينية)، فلتعلم بأنه لا يوجد أخطر ولا أفضع من أن يقوم قسيس بدراسة تلك الموضوعات التي يجب أن يتعد عن دراستها حتى غير المتدينين، وأن ما تقوم به أنت يعتبر بالنسبة إليّ مبعثا للحن والأسى، لأن مدائح جويتر (وهو أحد الآلهة الكبار عند اليونان والرومان) ومدائح المسيح لا يجوز أن تصدر من فم واحد"³⁶.

وفي القرن العاشر أعلن أحد أعوان البابا بأن أتباع القديس بطرس (وهو نفسه بولس الرسول أكبر مبشر بالمسيحية في عهدها الأول، وأول منظم لكنائسها في أوروبا وآسيا) لا يجوز لهم أن يتخذوا معلمين لهم أفلاطون (اليوناني 427-348 ق.م) ولا فرجيل (70-19 ق.م) ولا تيرونس (190-159 ق.م) (الرومانيين) ولا غيرهم من قطيع الفلاسفة³⁷.

وقد امتد ذلك الموقف العدائي من الكنيسة تجاه التراث اليوناني الروماني حتى القرن الثاني عشر، حيث أعلن أحد علمائها الموسوعيين، وهو هونوريوس دوتون **Honorius d'Autun** الذي ظل إلى هذا اليوم لا تعرف حياته إلا من خلال المؤلفات العديدة التي وضعها في علم اللاهوت وعلوم أخرى كثيرة³⁸، بأن "لا فائدة تجنيها النفس البشرية من مؤلفات

³⁴ Gusdorf (Georges), *les sciences humaines et le pensée occidentale*, T.2, Paris, Payot, 1967, p 159.

³⁵ المصدر نفسه.

³⁶ المصدر نفسه، ص 160-159.

³⁷ المصدر نفسه.

³⁸ *Larousse du 20° siècle*, Paris, s.d, T.3, p 1065.

(الفيلسوف اليوناني) أفلاطون، ولا (الشاعرين الرومانيين) فرجيل وأفيد (43 ق.م-17 م)، وأن جميع هؤلاء المفكرين وأمثالهم يوجدون في سجون بابل الجهنمية يجمعون أسنانهم تحت وطأة عذاب بلوتون³⁹ (إله جهنم عند اليونان والرومان).

ومما زاد في خطورة الوضع في ميدان الثقافة والتعليم في أوروبا في العصر الوسيط أن محاكم التفتيش التابعة للكنيسة صارت تسلط أنظارها على أصحاب كل الأفكار الحرة والتوجهات العلمية الجديدة من العلماء ورجال الفكر، وتوجه لهم إشارة الاتهام بالإلحاد والانشقاق عن الدين القويم، أو بالهرطقة حسب مصطلح ذلك العصر. ومن ثمة يبرر القبض عليهم ورميهم في السجون المظلمة وتسليط أشد أنواع العقاب عليهم، مثل قطع اللسان والشنق والحرق وهم على قيد الحياة. وتاريخ محاكم التفتيش في معظم أنحاء أوروبا حافل اليوم بأسماء الأساتذة الذين حوكموا أمام قضاتها وصدرت في حقهم مثل تلك العقوبات. وكان منهم سيجي دو برامن **Siger de Bramant** (1281-1235 م) الذي توفي في ظروف غامضة⁴⁰، وكان يشتغل استاذا بجامعة باريس، وكانت تهمة أنه أنجز شرحا لمؤلف أرسطو حول ما وراء الطبيعة شبيها بالشرح الذي وضعه له العالم المسلم ابن رشد⁴¹. ثم

وأما غاليليو عالم الفلك والفيزياء الإيطالي الشهير (1564-1642 م) فقد تبنى نظرية كوبرنيكوس القائلة بأن الشمس هي مركز الكون بدلا من الأرض كما كان يعتقد من قبل، وأعلن ذلك في كتابه "الحوار" الذي أصدره في عام 1532 م. فكان ذلك سببا كافيا لإتهامه بالهرطقة واستدعائه للمثول أمام محكمة التفتيش في روما في العام نفسه. وفي أثناء المحاكمة قدم غاليليو توبته بأن تراجع عن القول بتلك النظرية وقال بأنها خاطئة، ثم أقسم بأنه لن يقول بها ولا بمثلها مرة أخرى ما دام على قيد الحياة. وقد شفعت تلك التوبة للعالم الإيطالي بأن خفف الحكم عليه بالإعدام إلى الإقامة الجبرية في أحد منازل المهجورة بالريف، حيث بقي معزولا حتى وافته المنية في عام 1642 م.

وكانت نتيجة ذلك المنهج الذي اتبعته الكنيسة في التعليم، وكذلك الظروف التي أحاطت بمختلف جوانب الحياة في القارة، أن عم التخلف العلمي في المجتمع الأوروبي وسيطر الركود الثقافي، وصارت الحقائق عند أغلب الناس بعيدة عن الواقع ومختلطة بالتصورات الخيالية

³⁹ ، المصدر السابق، ص 160. Gusdorf.

⁴⁰ المصدر نفسه، ص 220.

⁴¹ Petit Larousse, Paris, 1980.

والمفاهيم الخاطئة التي يقتبسها رجال الكنيسة من نصوصهم الدينية. وهذه بعض مظاهر ذلك الوضع.

ففي مجال الفلك فإن الأوروبيين ظلوا إلى منتصف القرن السادس عشر، وبالتحديد إلى عام 1543م عندما أصدر عالم الفلك البولوني كوبرنيكوس مؤلفه حول "الأفلاك السماوية، يعتقدون بأن الأرض هي مركز الكون وأنها محاطة بتسع هالات دائرية تشكل الفضاء الخارجي الذي تسبح فيه الشمس وباقي الكواكب، مثلما قال بطليموس في القرن الثاني قبل الميلاد (ت 168 ق.م)⁴².

وفي مجال الجغرافيا فإنهم ظلوا حتى أواخر القرن الخامس عشر لا يعرفون مكان وجود الحبشة على سطح الكرة الأرضية، أهي في إفريقيا أم في آسيا، وهل هي قريبة أم بعيدة. ونظرا لكونها ملكة مسيحية فإنهم ربطوها بأسطورة الأسقف جون الذي يعتقدون بأنه خرج يوما من أوروبا لنشر الديانة المسيحية، وأثمرت جهوده بتأسيس تلك المملكة التي أضفوا عليها روايات خيالية لا تستند إلى أي واقع جغرافي أو سياسي. فحسب بعضهم أنها مملكة عظيمة بها المعادن الثمينة والمخلوقات العجيبة والربيع الدائم، وحسب البعض الآخر أنها بلاد الوحوش، حتى أن سكانها لا يشبهون الآدميين إلا في صفات قليلة⁴³. وأما ماركوبولو (1254-1324 م) الذي زار بلاد الصين وجال أغلب أنحاءها وعاش بين سكانها طوال أربعة وعشرين عاما (1271-1295 م)، فإن أغلب سكان البندقية لم يصدقوا الروايات التي سجلها في رحلته وكان يقصها عليهم في المحلات والساحات العامة، حتى أن اسمه صار بمعنى الكذاب، وأصبح يطلق على من لا يوثق فيه من الناس، وأما الأطفال فيذكر أنهم كانوا يمشون وراءه في شوارع المدينة وينادونه "السيد ماركوبولو قص علينا كذوبة"⁴⁴.

وفي ميدان التاريخ فإن المختصين أثبتوا بأن التاريخ باعتباره فرعا من الأدب أو علما قائما بذاته لم يبدأ في أوروبا إلا منذ عصر النهضة. إذ أن مؤرخي القرون الوسطى كانوا لا يعرفون سوى نقل الروايات وصناعة سيفساء الأحداث دون أن يستخدموا أدنى مستويات النقد والتحقيق من أجل بلوغ حقائق الأخبار. وذلك لأن دراسة الماضي عندهم لم تكن تتم بدافع علمي وإنما بدافع ديني مشبوه. "وباختصار فإن ما نسميه البحث التاريخي والنقد التاريخي لم يكونا موجودين في العصر

⁴² ديورانن، المصدر السابق، م 4، ج 6، ص 172. Astronomie, in : La Grande Encyclopédie.

⁴³ Cat (Edouard), Les grandes découvertes maritimes du 13° au 16° siècle, Paris, Cadot, 1982, pp 44, 178. Gounard (René), La conquête portugaise, Paris, L. Médici, 1947, pp 52-56.

⁴⁴ Bonvalo (gabriel), Les chercheurs de routes, Marcopolo, Paris, 1924, pp 236-245.

الوسيط مطلقا. كما لم يكن أي مؤلف آنذاك له فكرة البحث في عدة مؤلفات عن المعلومات التي تخص شخصا معيناً أو حادثة أو مؤسسة، لإيجاد تشكيلة جديدة ووصف أصيل"، وذلك رأي غابريال مونو **Gabriel Monod** أحد المؤرخين الفرنسيين⁴⁵.

ويقول المؤرخ الألماني فون سيبل حول الموضوع نفسه: "لم يكن يوجد في تلك الفترة معيار للأحكام التاريخية ولا إحساس بالحقيقة التاريخية ولا القدر اليسير من الحاسة النقدية. بل ساد الحكم المطلق، والسلطة الدينية التي تحكم دون عائق، وتمكنت هذه السلطة الدينية من أن تحمي كل مآثور ومتوارث من المذاهب والعقائد. ثم إن الناس في العصور الوسطى كانوا يميلون إلى تصديق كل ما يقال، بدلا من البحث للتفرقة بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي. واتسع أفق الخيال في كل مكان وصارت له اليد العليا على العقل والمنطق بحيث لم يصبح هناك فاصل أو تفرقة بين ما يجب أن يكون وما هو قائم فعلا، أو بين الخيال والواقع"⁴⁶.

وفي ميدان العلوم الفيزيائية فإن الأوروبيين ظلوا حتى القرن السادس عشر يعتقدون في قانون الحركة الذي قال به أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو أن الأجسام تتحرك نحو اتجاهين، أحدهما نحو الأسفل، وذلك بالنسبة للماء والتراب، والثاني نحو الأعلى، وذلك بالنسبة للهواء والنار. وقد أبطل غاليليو ذلك القانون وقال بأن هناك حركة واحدة تتم نحو الأسفل بالنسبة لجميع الأجسام، وإن حدث أن اتجه جسم نحو الأعلى فذلك فقط لأن كثافته أقل من كثافة المادة التي يسبح فيها⁴⁷.

وفي ميدان الرياضيات يكفي الإشارة إلى أن الأرقام العربية ومعها الصفر، لما أدخلها العالم الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي (ولد عام 1180 م) إلى أوروبا وألف فيها كتابا بين فيه كيفية استخدامها، فإن الأوروبيين أطلقوا عليها الأرقام العجيبة. كما أن بعض الناس رفضوا استخدامها وطلبوا من السلطات منع انتشارها، وذلك ما حدث في فلورنسا. ولم تحل تلك الأرقام محل الأرقام الرومانية المعقدة إلا في القرن السادس عشر عندما أدرك علماء الرياضيات ورجال الأعمال فعاليتها في إجراء العمليات الحسابية المعقدة⁴⁸.

⁴⁵ ، المصدر السابق، ص 252-253 Gusdorf. نقلا عن :

⁴⁶ نقلا عن : بارنز (هاري المر)، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة عبد الرحمن برج، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1984، ج 1، ص 84.

⁴⁷ ، المصدر السابق، ص 52-53 Geymonat.

⁴⁸ ديورانت، المصدر السابق، م 4، ج 6، ص 170-171. العقيقي (نجيب)، المستشرقون، ط 4، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص 117.

وأما الطب الذي يعد من أقدم ما اهتم به الإنسان من معارف ووجه إليه عنايته بالبحث والتأليف، فإن دراسته في أوروبا في العصر الوسيط قد تدهورت أكثر من جميع العلوم . ويرجع السبب الرئيسي لذلك التدهور إلى أن الكنيسة كانت تحرم على أتباعها دراسة الطب بصفة مطلقة. وكان مصدر ذلك التحريم أن الطبيب غالبا ما يلجأ في أثناء عمله إلى ممارسة الجراحة التي تؤدي إلى إراقة دم الإنسان. وإراقة الدم هو العمل الذي كانت الكنيسة تعتبره من أفضع الأعمال التي يقوم بها الإنسان ، ومن ثمة حرمت على أتباعها القيام به مهما كان الغرض منه، سواء للعلاج أم للقتل أم غيرهما. وبذلك منع رجل الدين من المشاركة في المعارك أو قتل إنسان أو بتر أحد أعضائه أو جرحه حتى وإن تعلق الأمر بتنفيذ حكم قضائي⁴⁹.

وكان من الطبيعي أن يرافق تدهور دراسة الطب في أوروبا أن يعم العجز على تفسير الأمراض التي تصيب الإنسان من وقت لآخر، وإيجاد العلاقة بينها وبين المحيط الذي يعيش فيه، سواء للوقاية منها أو للبحث عن العلاج المناسب لها في الطبيعة. وصار الطب يمارس بين جميع الناس وحتى بين رجال الدين، بأسلوب يتسم بالمثالية أحيانا، وبالشعوذة أحيانا أخرى. وكمثال على ذلك استخدام الرموز لعلاج الأمراض، مثلما فعل سكان مدينة أوفارني بفرنسا في عام 543م لتجنب خطر الوباء، إذ رسموا على جدران منازلهم علامة تشبه حرف (T) اللاتيني⁵⁰.

وأما الأوبئة التي كانت تدوم طويلا وتقضي في كل مرة على حياة آلاف الأشخاص، فإن الأوروبيين كانوا يقفون أمامها مستسلمين تماما، ونظرا إلى عجزهم عن معرفة الأسباب التي كانت تؤدي إلى حدوثها، واكتشاف خصائصها، فإنهم كانوا يطلقون عليها جميعا اسما واحدا، وهو **épidémie** أو **peste**. وهما كلمتان مرادفتان لكلمة "طاعون" العربية⁵¹. وإذا حدث أن ميزوا بين بعض الأوبئة فإن ذلك لم يكن يتم بطريقة علمية قائمة على تشخيص الوباء، وإنما يتم بناء على الأحداث التاريخية التي ارتبطت بها تلك الأوبئة. ومن ثمة كانت الأسماء المستخدمة في ذلك التمييز ذات فائدة في البحث بالنسبة للمؤرخ أكثر مما هي بالنسبة للطبيب. وكمثال على ذلك ما حدث في عام 1495 م عندما غزا الفرنسيون إيطاليا، حيث صادف أن انتشر وباء بين الجنود الفرنسيين في مدينة نابولي، ثم انتقل ذلك الوباء إلى سكان المدينة. ولما كانت أعراض ذلك الوباء غريبة عن الإيطاليين ، فإنهم أطلقوا عليه اسم "الداء الفرنسي". وفي مقابل

⁴⁹ Davy (M.M), Les serments universitaires, parisiens, Paris, Librairie philosophique, 1931,p 101.

⁵⁰ Biraben (Noel jean), Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens, Paris, Bouton, 1975, T. 1,p 47.

⁵¹ ديورانت، المصدر السابق، م 5، ج 4، ص 20-24.

ذلك كان الفرنسيون أيضا لا يعرفون أعراضه واعتقدوا بأنه انتقل إليهم من الإيطاليين ، فسموه "الداء الإيطالي"، أو "داء نابولي"⁵². وذلك الداء هو الذي تمكن الطبيب الإيطالي نيكولولو نيسينو (1428-1524 م) من اكتشاف حقيقته العلمية وأطلق عليه اسم "سيفليس Syphlis"⁵³، وهو داء الزهري في العربية. وظل يعرف بين المسلمين في الدولة العثمانية باسم الداء الإفنجي، بمعنى الداء الأوروبي⁵⁴.

ومن خلال هذا العرض يبدو أننا ألممنا بجوانب كثيرة من مظاهر الحياة في أوروبا في العصر الوسيط، وتبين لنا من خلال ذلك أن المجتمع الأوروبي كان آنذاك يعيش انحطاطا حضاريا شاملا، سواء بالمقارنة بما كان موجودا لدى اليونان والرومان قبل ذلك العصر، أم لدى المسلمين في العصر نفسه، أم لدى المجتمع الأوروبي نفسه في عصر النهضة فيما بعد. ولكن الأمر الذي لا يخفى على دارس تلك المرحلة من تاريخ أوروبا هو أن المجتمع في ذلك العصر لم يكن كله يعيش على توجه سلبي واحد في التفكير والعمل، وإنما كانت هناك قوة اجتماعية لها توجه إيجابي تدعو إلى التواصل الحضاري الشامل، وتعمل على بعث مستوى الثقافة والتعليم، وتجتهد من أجل تطوير مناهج التفكير والعمل في الحياة. وقد ظلت تلك القوة الاجتماعية طوال العصر الوسيط تنمو فعاليتها ويزداد نشاطها ويتسع عملها حتى صارت في نهاية الأمر تشكل تيارا جارفا من الانبعاث الحضاري الشامل، وذلك التيار هو الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بالنهضة، وكانت بداية ظهوره في القرن الرابع عشر بإيطاليا، ثم ازدهرت واتسع نطاقها حتى شملت أنحاء كثيرة من أوروبا في القرن السادس عشر.

⁵² Bieler (André), l'homme et la femme dans la morale calviniste, Genève, Laboret, 1961, p 25. المصدر نفسه.

⁵³ Médecine, in : la Grande Encyclopédie.

⁵⁴ وأنظر كذلك : Franschery (Ch. Samy Bey), Dictionnaire Turc-Français, Istanboul, Mihran, 1911 . تاريخ عبد الحميد بك، في : سعد الله (أبو القاسم)، هموم حضارية، الجزائر، دار الأمة، 1993، ص 175.

المحور الثاني

مظاهر الانبعاث الممهدة للنهضة الأوروبية

لم تندثر الحضارة الإنسانية تماما في أوروبا في العصر الوسيط، وإنما بقيت منها شرارات متقدة وبدور حية تحملها بعض العناصر الفعالة في المجتمع الأوروبي، وظلت تلك العناصر تعمل في مجالات عديدة وفي مقدمتها التعليم الذي يقوم عليه كل ازدهار حضاري، وبمرور السنين اتسع نطاق عمل تلك العناصر وتراكمت نتائجه حتى أثمر في الفترة ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر بالحدث الكبير الذي أطلق عليه النهضة الأوروبية. وذلك العمل هو الذي اصطلحنا عليه هنا باسم "مظاهر الإنبعاث الممهدة للنهضة"، وقد شاركت فيه عناصر مميزة من المجتمع الأوروبي ويأتي في مقدمتهم الرهبان، ورجال الكنيسة، ثم الملوك والأمراء، وبعدهم الأساتذة، وفي الأخير التجار وغيرهم من أصحاب الحرف، وذلك ما سنتناوله في هذا القسم من المحاضرة.

أعمال الرهبان :

يقصد بالرهبة في المسيحية "اعتزال العالم للتعبد والعيش في الزهد والنسك والتقشف طوعا واختيارا ابتغاء مرضاة الله"¹. وتقتضي العزلة في الرهبة الإنقطاع عن الحياة العامة بعيدا عن المدن والأماكن الآهلة بالسكان من أجل التفرغ لحياة دينية قائمة على التقوى وتطهير النفس والتأمل والابتعاد عن كل مظاهر الحياة المدنية. ولكن لفظ الرهبة إن كان قد استعمل في البداية للدلالة على نظام العزلة والتقشف فإنه ما لبث أن صار يطلق على نظام الديرية. ويقصد بالديرية نوع من الرهبة الاجتماعية، ويعني ذلك اجتماع الرهبان في أحد الأديرة وانقطاعهم فيه للعبادة، ويقومون مع ذلك بتوفير وسائل العيش لأنفسهم بما ينتجون من غلات ويصنعونه من أدوات². وإذا كانت الأنظمة الديرية التي قامت في أوروبا أساسها الانقطاع عن متع الدنيا والتفرغ للعبادة فإنها من جانب آخر قد أعطت عناية للتربية الدينية التي تتطلب معرفة القراءة والكتابة مع المطالعة المستمرة بقراءة الإنجيل ومختلف النصوص المقدسة وأخبار رجال الدين وكذلك حفظ الترانيم ومعرفة التقاويم وما إلى ذلك من أنواع المعارف التي يتطلبها التكوين الديني. ومن ثمة يتبين لنا الدور الذي قامت به الأديرة في الحفاظ على الثقافة والتعليم في أوروبا في العصر الوسيط.

¹ توما (ألفونس)، نمو الحركة الرهبانية بين الشرق والغرب في فجر العصور الوسطى، بحث نشر في مجلة سرتا، قسنطينة، معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة، ع 4، 1401 هـ / 1980م، ص 56.

² المصدر نفسه، ص 56-57.

ولم تكن الحياة الديرية في أوروبا مطلقة وإنما كانت تنظمها قوانين وتتحكم فيها أجهزة إدارية يرأسها رهبان متمرسون. وإذا كانت تلك الأديرة تجمعها كلها الحياة الدينية فإنها كانت مع ذلك مختلفة في أنظمتها ومناهج عملها الديني باختلاف الرهبان الذين أسسوها. ومن أقدم وأشهر الأنظمة الديرية التي أنشئت في أوروبا في العصر الوسيط وكان لها دور بارز في نشر الديانة المسيحية بين القبائل البربرية والحفاظ على الثقافة والتعليم آنذاك، هو النظام الذي أنشأه القديس بينديكت (480-543م) الذي ولد كما يلاحظ بعد أربع سنوات فقط من سقوط الإمبراطورية الرومانية على يد القائد البربري أودواكر، وهو الحدث الذي عاش ذلك القديس نتائج الخطيرة التي انعكست على الحياة العامة في كامل أوروبا حيث صارت السلطة بيد القبائل البربرية. ولكي يحمي القديس بينديكت الديانة المسيحية من خطر التيار الوثني الجارف ويوفر للأوروبيين قدرا من التربية الدينية والتعليم فقد أسس في حوالي عام 529-530م نظامه الديرية المذكور، وكان مبدؤه العام هو "العمل عبادة". ولكي يضمن ذلك القديس الإيطالي الاستمرار لنظامه الديرية فقد وضع له قوانين ثابتة دونها في سجل وزعه على الرهبان ليرجعوا إليه في تنظيم مختلف الأعمال التي يقومون بها في الأديرة التي يقيمون بها. وكان أول الأديرة البينديكتية في أوروبا هو دير مونت كاسينو **Mont-Cassino** بإيطاليا، وكان القديس بينديكت هو الذي أسسه بنفسه، وعلى نظامه أسست مختلف الأديرة البينديكتية في أوروبا، ومن أشهرها دير القديس غال **Sait Gall** الذي أسس في القرن الثامن بسويسرا، ودير مدينة كلوني قرب باريس بفرنسا الذي أسس في عام 910م ومنه انطلقت عملية إصلاح كبرى للأديرة البينديكتية في أوروبا، ثم دير يورك في إنكلترا الذي كان أحد أكبر مراكز التعليم في أوروبا في العصر الوسيط³.

وعلى غرار نظام الرهبنة البينديكتية فقد أسست أنظمة أخرى في أنحاء كثيرة من أوروبا وكان منها نظام شارتر **Chartreux** في عام 1084م، ونظام السيسترسين **Cisterciens** في عام 1098م، ونظام الدومينيكيين **Dominicains** وهو نفسه نظام الاخوة الوعاظ **Les Frères Prêcheurs** في عام 1215م، ونظام الفرانسيسكانيين **Les Franciscains** وهو نفسه نظام الاخوة القصر **Les Frères Mineurs** في عام 1209م⁴. وإذا كانت تلك الأنظمة الديرية قد اختلفت في الأسماء ومناهج العمل فإنها اتفقت فيما بينها حول تعليم أتباعها أكبر قسط من المعارف التي تمكنهم من القيام بواجباتهم الدينية على أكمل وجه.

³ المصدر نفسه، ص 66-67. مجموعة من المؤلفين، تاريخ الحضارات العام، ترجمة مجموعة من الأساتذة، م 3، بيروت، المصدر السابق، صفحات متفرقة. Petit Larousse منشورات عويدات، 1966، ص 41.

ومن ثمة جاءت قوانين القديس بينيديكت على سبيل المثال تنص على إرغام الرهبان داخل الأديرة على التفرغ للمطالعة في أيام معينة من الفجر إلى الساعة الثالثة مساءً ، وعلى كل راهب في خلال تلك الفترة أن يأخذ كتاباً من مكتبة الدير ويركز مطالعته عليه حتى يستوعب موضوعاته. ولكي يطبق ذلك النظام التعليمي على الرهبان بصرامة فإن القديس بينيديكت نص في قوانينه على تعيين مفتشين متخصصين يتولون مراقبة الرهبان و إرشادهم في أثناء المطالعة⁵.

وقد تدعمت الحياة الثقافية في الأديرة أكثر عندما صار طلبة العلم يلجئون إليها من كل مكان لأن السلطات الإقطاعية لم تهتم بتوفير شروط الدراسة لهم في المدن والأرياف التي يقطنون فيها، ووجدوا أنفسهم بذلك يجهلون مبادئ العقيدة المسيحية التي يؤمنون بها. ومن ثمة صارت الأديرة ملاجئاً للرهبان من جهة، ومدارس للتعليم من جهة أخرى. وكانت البرامج المتبعة في التكوين على الرغم من بساطتها وارتباطها القوي بالعقيدة إلا أنها كانت في بعض الحالات تتوخى التعمق في دراسة اللغة اللاتينية وآدابها، وكان يشرف على وضعها رجال لهم قسط وافر من التكوين، وذلك كان حال ثيودوسيوس الطرسوسي الذي قد يكون من خريجي مدارس أثينا،

ولكي تؤدي الأديرة دورها بشكل أكمل في التربية الدينية والتعليم فقد ألحقت بها مكتبات تضم كتباً نفيسة في مختلف ميادين العلوم، وكان الرهبان ينسخون ما يرونه نادراً منها في نسخ كثيرة يزودون بها مكتبة ديرهم والمكتبات الأخرى في الأديرة التابعة لنظامهم⁶. ولإعطاء صورة عامة عن المكتبات الديرية التي كانت أوروبا تزخر بها إبان العصر الوسيط نذكر أنه في خلال الحرب الأهلية التي تسبب فيها الفلاحون في ألمانيا في عام 1524-1525م قد دمرت أعداد كبيرة منها في مختلف المقاطعات، وكمثال على ذلك فإن مقاطعة تيرنيفيا وحدها قد دمر بها سبعون مكتبة⁷.

وقد أكد المؤرخون أن التراث اليوناني الروماني الذي قامت عليه النهضة الأوروبية قد عثر على قسم وفير منه في مكتبات الأديرة، حتى أن فرانثيسكو بيتراكا (1304-1374م) الذي يعتبر رائد إحياء التراث القديم في ذلك العصر كان يصف مخطوطات ذلك التراث بالظرفية الأسيرة في أيدي المجانين الهمج، ومما يقصده بعبارة "المجانين الهمج" رجال الدين ومنهم رؤساء الأديرة بطبيعة الحال⁸. وكدليل على ما قدمته مكتبات الأديرة لجامعي المخطوطات في عصر النهضة من

⁵ العريني (السيد الباز)، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، من غير تاريخ، ص 187.

⁶ المصدر نفسه. العريني، المصدر السابق، ص 171.

⁷ ستينتشفيتش (ألكسندر)، تاريخ الكتاب، القسم الثاني، ترجمة محمد الأرنؤوط، سلسلة عالم المعرفة، ع 170، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1413هـ/1993م، ص 180.

⁸ لمزيد من التفاصيل راجع المحاضرة التالية.

كنوز نذكر الثمانمائة مخطوط التي استطاع أن يجمعها أحد أكبر جامعي المخطوطات بعد فرانسيسكو بيتراكا في ذلك العصر، وهو نيقولو نيقولي (1364-1437م)، وقد جمعها من أديرة منتشرة في مناطق مختلفة من أوروبا، وأنفق فيها أموالاً طائلة، وكان يقوم بنسخ المخطوطات بنفسه داخل المكتبات إذا لم يسمح له الرهبان بشرائها.

ولدعم قول مؤرخنا ذلك نذكر هنا أن المؤرخ الأمريكي المر بارنز قد تطرق في مؤلفه "تاريخ الكتابة التاريخية" إلى نحو ثلاثين مؤرخاً ينتمون كلهم إلى طائفة الرهبان في العصر الوسيط، ويتوزعون على أربعة بلدان هي إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنكلترا، وتركوا جميعاً مدونات لا تزال تشكل مصادر مهمة للباحثين المختصين في ذلك العصر⁹.

وعلاوة على تسجيل الأحداث التاريخية فإن الرهبان اهتموا بإعداد فهارس التراث ونظراً إلى طبيعة الحياة الاجتماعية القائمة على العزلة التي عرفتها الأديرة فإن الرهبان لم يكونوا يشتغلون بالتعليم والتأليف فقط وإنما كانوا يمارسون علاوة على ذلك أعمالاً أخرى تيسر لهم ظروف المعيشة وتوفر لهم شروط العمل في مختلف الميادين، حتى أن بعضهم توصل إلى اختراع تقنيات راقية تتعلق باستخدام المياه في إدارة المطاحن وري المزراع كما وصفت ذلك إحدى الوثائق تعود إلى دير كليرفو في فرنسا¹⁰. وما يجدر الإشارة إليه هنا أن استخدام التقنية في الأديرة قد شمل ميدان الثقافة أيضاً، وظهر ذلك في استخدام آلة الطباعة في طبع المؤلفات بعد اختراعها في ألمانيا في منتصف القرن الخامس عشر، حتى أن فضل السبق في اقتناء ذلك الاختراع الجديد في ذلك العصر في بعض الدول قد كان من نصيب الأديرة وليس المؤسسات المدنية، وذلك كان حال إيطاليا التي كانت أول دار للطباعة أسست بها هي التي أسست عام 1465م بدير القديس سكولاستيك البينديكتي في سوبياكو قرب روما، وبذلك الدير طبع كتاب "دوناتوس" في اللغة اللاتينية، وكتاب آخر في الخطابة من تأليف شيشرون¹¹.

ولكي نبرز دور الأديرة أكثر في التمهيد للنهضة الأوروبية نذكر هنا أن تلك المؤسسات الدينية كانت في أحيان كثيرة تشكل ملجأ لرجال العالم الذين كانوا كثيراً ما تسيطر عليهم الرغبة في أخريات حياتهم في التخلي عن متع الدنيا والانقطاع عن المجتمع الذي يعيشون فيه من أجل التفرغ لحياة الزهد والنسك برفقة الرهبان داخل الأديرة، وهناك ينشغلون إلى جانب حياتهم الدينية

⁹ بارنز (هاري المر)، تاريخ الكتابة التاريخية، ج 1، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1984، ص 102-126.

¹⁰ المصدر نفسه، ص 174-175.

¹¹ ستيبنتشفيتش، المصدر السابق، ص 91.

بمواصلة نشاطهم العلمي في التدريس والتأليف، ويسهمون بذلك في دفع الحركة الثقافية في الدير ورفع مستوى التكوين لدى المتعلمين الذين يترددون عليه. وذلك كان شأن ألكوين الإنكليزي (735-804م) الذي التحق بخدمة الملك الكارولنجي شارلمان (768-814م) وكان له دور كبير في بعث حركة التعليم في مملكته، ولكنه ما لبث في عام 801م أن اعتزل في دير سان مارتن بفرنسا وأسس به مدرسة جذبت كثيرا من طلبة العلم وأسهمت إسهاما كبيرا في نشر المعرفة في المملكة الكارولنجية

أعمال رجال الكنيسة :

لعل الموضوع يعد غريبا أن تحدثنا هنا عن الكنيسة وعددنا أعمال رجالها من الأعمال التي مهدت للنهضة الأوروبية مع أن الشائع بين دارسي التاريخ والمثقفين بشكل عام هو أن الكنيسة كانت سببا في انحطاط المستوى الحضاري في أوروبا وحجر عثرة في طريق الحركة العلمية بها. وذلك في الواقع حكم لا يمكن لمؤرخ أن ينفيه، ولكن مع ذلك فإن وظيفة الكنيسة الدينية قد حتمت على رجالها أن يكونوا على امتداد العصر الوسيط حاملين لبذور الحضارة الإنسانية، وأن تكون أعمالهم في أحيان كثيرة إسهامات فعالة في دفع حركة النهضة في القارة، وذلك ما داموا يرعون التعليم في المجتمع ويقدمون لأفراده بعض الخدمات التي تيسر عليهم ظروف الحياة. ومن المعلوم في تاريخ التعليم في أوروبا في العصر الوسيط أن المدارس كانت تابعة إما للأديرة كما ذكرنا في العنصر السابق، وإما للكنائس. وكان التكوين في تلك المدارس جميعا بسيطا في أغلب الحالات ولا يتعدى القراءة والكتابة وبعض قواعد الحساب والمنطق والموسيقى، وهي المعارف التي يحتاج إليها رجل الدين لممارسة وظيفته في الدير أو الكنيسة. وبشكل عام فإن تلك المدارس كانت مهمتها تكاد تقتصر على تخريج رجال الدين، أو كما ذكر أحد المؤرخين الأوروبيين "أن الإنسان كان يدخل إليها طفلا فيخرج منها قسيسا"¹².

ولكن نظام التعليم في المدارس الكنسية على وجه الخصوص لم يبق على مستوى واحد طوال العصر الوسيط، وإنما كان يتعرض من زمن إلى آخر إلى حركات إصلاحية وعمليات دعم فجائية تساعده على التطور من جهة، وإلى التوسع بين مختلف شرائح المجتمع من جهة أخرى. وكان أصحاب تلك الأعمال هم بعض الباباوات المتتورين أمثال البابا أوجان الثاني (824-827م) الذي أصدر في عام 826م قرارا أرسله إلى الأساقفة في جميع المدن بأن يعينوا في المدارس الكنسية التابعة لإدارتهم "أساتذة مساعدين لتدريس الآداب (القديمة) والفنون الحرة إلى جانب

¹² Irsay (Stephan d'), Histoire des universités, T.I, Paris, Auguste Picard, 1933, p 40. Verger (Jacques), les universités au Moyen Age, coll.SUP, N°14, Paris, P.U.F., 1973, p 11.

العقائد الدينية"13. ثم البابا اسكندر الثالث (1159-1181م) الذي أدخل ضمن قرارات المجمع الكنسي الثالث الذي عقد في عام 1179م بقصر لاتران بروما، قرارا نص على أن تلحق بكل كاتدرائية في المدن الأوروبية مدرسة تقدم تعليما مجانا للفقراء من أفراد المجتمع، وأن تلغى الرسوم التي كان يدفعها الطلبة المتخرجون مقابل الحصول على شهاداتهم، وأن يكتفى في ذلك باشتراط الكفاءة العلمية فقط14. ولم ينس البابا اسكندر أن يضمن قراره ذلك فقرة تنص على تخصيص مرتبات للأساتذة تناسب وظيفتهم لكي يستعينوا بها على تدبير شئون حياتهم وينفقون منها في رفع مستواهم في التعليم15. وعندما اجتمع المجمع الكنسي الرابع في عام 1215م في قصر لاتران أكد في قراراته على تدريس الآداب اللاتينية والفنون الحرة في المدارس الكنسية16. ومن الأعمال التي قدمها الباباوات للمجتمع الأوروبي في العصر الوسيط وكان لها دور كبير في دفع حركة التعليم في القارة تلك المساعدات التي قدموها لمؤسسات التعليم العالية التي ظهر أول نموذج لها في باريس في أواخر القرن الثاني عشر ثم انتشرت في باقي المدن الأوروبية الكبرى في القرون التالية، وهي المؤسسات التي أطلق عليها اسم الجامعات. وهي مؤسسات كان ظهورها في حقيقة الأمر يشكل امتدادا لمدارس التعليم الابتدائية والمتوسطة التابعة للكنيسة. ونظرا إلى الأعداد الكبيرة من الطلبة الذين كانوا يؤمنونها والأساتذة المرموقين الذين كانوا يلتحقون للتدريس بها فإن الكنيسة كان من مصلحتها الدينية والاجتماعية وحتى السياسية أن تمد يد الرعاية لها وتحكم سيطرتها الإدارية عليها وتشرف على ترتيب برامجها الدراسية. ومن ثمة فإن قرار التأسيس الذي يتعلق بتلك المؤسسات لم تكن تصدره السلطات المدنية وإنما السلطة الدينية بزعامة البابا في روما. وليس ذلك فحسب بل أن المشاكل التي كانت تحدث بين الطلبة والسلطات المحلية كانت لا تجد حلها في معظم الأوقات إلا على أيدي البابا أو ممثله في المدينة التي توجد بها المؤسسة، وذلك ما سنتطرق إليه في محاضرة خاصة17.

والحديث عن أعمال رجال الكنيسة التي مهدت للنهضة في أوروبا يجرنا حتما إلى الحديث عن أعمال البابا نيقولا الخامس (1447-1455م) الذي تخرج في جامعة بولونيا بإيطاليا حيث حصل

13 Verger (Geneviere d'), La vie au Moyen Age, المصدر نفسه، ص 40-41. وراجع أيضا : coll. Que sais-je, N°132, 9^e éd. Paris, P.U.F., 1975, p 85.

14 المصدر السابق، ص 27.

15 المصدر السابق، ص 65.

16 المصدر السابق، ص 85.

17 سنتناول ذلك في المحاضرة الخامسة حول ظهور الجامعات في أوروبا.

على درجة الدكتوراه. ومما اشتهر به ذلك البابا حبه الشديد للعلم وتعلقه بالعلماء، وكان منذ صغره يحلم بتأسيس مكتبة يجمع فيها أغلب المخطوطات النفيسة، ولذلك كان ينفق أغلب ما يحصل عليه من أموال في شراء المخطوطات. وعندما تولى منصب البابوية قال أحد معاصريه: " إن رؤى أفلاطون قد تحققت، فقد صار الفيلسوف ملكاً". وكان أهم عمل اهتم به نيقولا الخامس واستغل فيه إمكانات الفاتيكان المالية الضخمة هو تحقيق حلمه العلمي الذي كان يراوده منذ سن الشباب، ولذلك جمع في مقره بالفاتيكان عدداً من الخطاطين وأوكل إليهم نسخ المخطوطات، وعين في الوقت ذاته خبراء في التراث القديم وأرسلهم إلى مختلف أنحاء أوروبا وبلاد اليونان للبحث عن المخطوطات النفيسة وإحضارها إليه بجميع الوسائل، سواء بدفع أثمانها أم بنسخها. كما أقام علاقات واسعة مع علماء ذلك العصر وصار يلتقي بهم في مقر إقامته ويوكل إليهم ترجمة المؤلفات اليونانية، وفي النهاية يقدم لهم المكافآت المالية التي يستحقونها. وكان من هؤلاء العلماء لورانزو فاللا (1407-1457م) الذي اشتهر بنقده هبة قسطنطين المعروفة 18، وقد تلقى منه مكافأة قدرها خمسمائة دوقة مقابل ترجمته كتاب من تأليف توكيدوس 19 (460-400 ق.م)، وهو كتاب في تاريخ حرب شبه جزيرة البيلوبونيز الذي اشتهر به.

وعندما توفي البابا نيقولا كانت مكتبة الفاتيكان قد صارت أضخم مكتبة في قارة أوروبا مطلقاً، إذ بلغ عدد مجلداتها خمسة آلاف، وقيل تسعة آلاف 20.

أعمال الملوك والأمراء :

لعل من أهم الظواهر التي يشترك فيها تاريخ البشرية هو ظهور الحكام المتنورين في بعض الأحقاب التي تبلى فيها شعوبهم بالأزمات. ونحن لا نتحدث هنا عن غلبة الأعداء، وإنما نتحدث عن ركود العقول وسيطرة الجهل وانتشار الفكر العقيم وما يترتب عن ذلك من تدهور في التجارة والاقتصاد وفساد في العلاقات في أوساط المجتمع وضعف في كيان الدولة بشكل عام، وذلك ما كان سائداً في أوروبا في العصر الوسيط حيث ظهر ملوك وأمراء أدركوا بعمق الأزمة الحضارية التي كانت تعانيها شعوبهم فعملوا على إخراجها منها بنشر التعليم وتنظيم الإدارة وتوفير الأمن وتشجيع التجارة، وكان من هؤلاء الملوك والأمراء الملك الكارولنجي شارلمان (768-814م)، والملوك النورمنديون بين عامي (1070-1798م)، ثم من بعدهم الإمبراطور فريديريك الثاني (1198-1250م) الألماني الأصل في صقلية

18 راجع ذلك في المحاضرة الأولى حول أوروبا في العصر الوسيط.

19 ديورانت (ول)، قصة الحضارة، م 5، ج 3، ترجمة محمد بدران، القاهرة، جامعة الدول العربية، ص 32-34.

20 ، المصدر السابق، Burckhardt.233

– أعمال الملك الكارولنجي شارلمان :

لقد كانت الفترة ما بين عامي 768 و814 م التي تولى فيها الملك الكارولنجي شارلمان الحكم في فرنسا وبعض أجزاء ألمانيا وإيطاليا من أهم فترات العصر الوسيط في أوروبا، حتى أن بعض المؤرخين أطلقوا عليها "عصر النهضة الكارولنجية"²¹. وقد أنجز شارلمان في خلال تلك الفترة أعمالاً كثيرة شملت ميادين مختلفة، وبشكل خاص ميدان التعليم منها الذي ركزنا عليه في هذه المحاضرة. وقد بدأ شارلمان حملة ف ذلك الميدان في حدود عام 780م بإنشاء مدرسة القصر (*l'école palatine* نسبة إلى كلمة *Palais* بمعنى القصر)، وعرفت بذلك الاسم لأن الملك الكارولنجي أقامها في القصر الذي يقيم به ويدير منه شئون مملكته، وكان في أغلب الأحيان في مدينة إيكس لاشييل. وخصص تلك المدرسة لرجال دولته والموهوبين من بعض أبناء المجتمع الذين رأى أن يعينوا في المستقبل لإدارة مؤسسات الدولة. وكان شارلمان نفسه يحضر حلقات الدراسة التي تنظم بتلك المدرسة.

وقد أدرك شارلمان أن قلة العلماء في مملكته يشكل أكبر عائق في تنفيذ مشاريعه التعليمية، سواء في عاصمته إيكس لاشييل أم في المدن الأخرى التابعة لمملكته. ومن ثمة اهتم بجلب العلماء من البلدان الأخرى في أوروبا وخارجها. وكان من أبرز العلماء الذين أفلح في جلبهم إلى فرنسا يوجد العالم الإنكليزي ألكوين الذي ولد في عام 735م بمدينة يورك شمالي لندن. وكان ألكوين ملماً بكثير من علوم ذلك العصر وعميق الفهم والتفكير، وكان يعرف ثلاث لغات هي اللاتينية واليونانية والعبرية. وقد توجه ألكوين إلى إيطاليا واستقر في مدينة بارمه، وهناك التقى به شارلمان في إحدى الغزوات التي قام بها ضد اللومبارديين في إيطاليا، وعندما عاد إلى مملكته أتى بألكوين برفقته وعينه مستشاراً له وأوكل إليه إدارة مدرسة القصر، وصار يدرس بتلك المدرسة البلاغة والمنطق والآداب، كما أسس بها مكتبة ومجلساً علمياً يشبه الأكاديمية لتنظيم الندوات العلمية. وقد ترك وراءه عدة مؤلفات شملت اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والحساب. وقد جمعت تلك المؤلفات في عام 1607م في مدينة باريس ونشرت بعد ذلك في عام 1777م²². وقد تخرج على أيدي ألكوين في مدرسة القصر طلبة كثيرون صاروا أساتذة في أنحاء كثيرة من أوروبا، وكان منهم من تولى وظائف حكومية، وكان منهم في فرنسا أينهارد **Einhard** أو أجينهارد **Eginhard** كما يسمى أيضاً، وعاش بين سنتي 770 و840م، وقد اشتهر بالبراعة في

²¹ Taton (René)، المصدر السابق، ص 296. وانظر أيضاً كلمة في الموسوعة الأمريكية، م 23. وكذلك : histoire générale des sciences, T.1, la science antique et médiévale, Paris, P.U.F., 1957, p 519.

²² Biographie Universelle ancienne et moderne, nouv. Ed., Paris, s.d.l., T.1.

التحصيل العلمي والاجتهاد في العمل ، مما جعل شارلمان يعجب به ويعينه أميناً في قصره وأوكل إليه إدارة أشغال البناء والعمران في المملكة.

وقد كان ذلك بخصوص العلماء الذين جلبهم شارلمان من داخل أوروبا، أما أولئك الذين جلبهم من خارجها فلم نستطع أن نعرف منهم سوى ربي ماهر اليهودي الذي أرسله إليه الخليفة المسلم هارون الرشيد (170-193هـ/786-809م) من بغداد عاصمة الدولة العباسية. وقد أقام ذلك العالم اليهودي بمدينة ناربون وأسس بها مدرسة أسماها الدار اليهودية وتولى فيها تدريس البيطرة والطب البشري، وإلى جانبها العقيدة اليهودية²³.

ولم يكتف شارلمان لكي ينشر التعليم في مملكته ، بالجهود التي بذلها هؤلاء العلماء الذين احضرهم من الخارج وإنما أصدر هو نفسه في عام 789م قراراً ملكياً أمر فيه بفتح المدارس في الأسقفيات والأديرة الموجودة في أنحاء المملكة، وأمر في الوقت ذاته أن تدرس للطلبة العلوم الدينية وإلى جانبها آداب القدماء وعلى رأسها اللغة اللاتينية وقواعدها وقد أثمرت جهود شارلمان في ميدان التعليم بأن نتج عنها ازدهار اللغة اللاتينية وانحصر اللهجات البربرية أمامها، وصار الطلبة في المدارس التابعة للأديرة والكنائس ينسخون المؤلفات التي وضعها قدماء الرومان بخط كارولنجي جميل حتى أن معرفة الأوروبيين في عصر النهضة بالتراث اللاتيني يرجع الفضل فيه إلى ما حفظته المكتبات الكارولنجية من مصنفات²⁴.

– أعمال الملوك النورمانيين وفريديريك الثاني في صقلية :

إن الحديث عن دور صقلية في النهضة الأوروبية هو في الواقع حديث عن انتقال مؤثرات الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وقد بدأ ذلك الانتقال يحدث بشكل بارز عندما أنهى الملوك النورمانيون على يد ملكهم روجر الأول (1062-1101م) الحكم الإسلامي بالجزيرة، ولكنهم اتبعوا في مقابل ذلك سياسة حكيمة اتسمت بالعدل والتسامح تجاه المسلمين من علماء ومزارعين وتجار وأهل حرف، وسمحوا لهم بممارسة نشاطاتهم في مختلف ميادين العمل ، حتى أن منهم من دخلوا أجهزة الدولة النورمانية واشتغلوا في قصور ملوكها أنفسهم. وقد استمرت تلك السياسة تجاه المسلمين من جانب حكام صقلية حتى عهد الإمبراطور الألماني الأصل فريديريك الثاني (1197-1250م) الذي عرف بعلاقاته الوطيدة بالمسلمين وشدة تأثره بحضارتهم . وكل تلك السياسة كان لها تأثير قوي في دفع حركة النهضة الأوروبية في أواخر العصر الوسيط. أما هنا فسيفقتصر حديثنا عن مدرسة ساليerno (جنوبي إيطاليا) التي كانت أول مؤسسة تعليمية تختص في تدريس الطب في

²³ ، المصدر السابق، ص 513. Taton.

²⁴ العريني، المصدر السابق، ص 292.

أوروبا، ومنها امتد نظام الدراسة الأكاديمية في ذلك الميدان من العلوم إلى سائر أنحاء أوروبا بفضل العناية التي نالتها تلك المدرسة من جانب ملوك صقلية، وبشكل خاص فريديريك الثاني منهم. ويرجع ارتباط ساليرنو بالدراسات الطبية إلى القرن السابع الميلادي حيث أسس الرهبان البينيديكتيون بها مستشفى لمعالجة المرضى. وبعد ذلك وفي تاريخ غير معلوم يعود إلى ما قبل عام 846م ألحقت بذلك المستشفى مدرسة لتعليم الطب بلغت مستوى من الازدهار في القرن التاسع، ولما كانت ساليرنو قريبة من جزيرة صقلية فإن النورمنديين لم يجدوا صعوبة في مد نفوذهم إليها، ومن ثمة وجهوا عنايتهم للمدرسة التي توجد بها ووضعوها تحت حمايتهم وشجعوا الدراسة بها. وكان أهم قرارا اتخذ بشأن ذلك هو الذي أصدره الملك روجر الثاني في عام 1140م ونص على منع كل شخص من ممارسة الطب ما لم يحصل على إجازة تثبت تخرجه في تلك المدرسة²⁵. ولكن ازدهار ساليرنو ارتبط أكثر ما ارتبط بعهد الإمبراطور فريديريك الثاني (1197-1250م) الذي أعاد تنظيم التعليم بها وفق قوانين جديدة وشروط محكمة مدونة أشرف بنفسه على وضعها. فقسم الدراسة إلى ثلاث مراحل تدوم الأولى منها ثلاث سنوات يدرس في خلالها الطالب الفلسفة والآداب، وتدوم المرحلة الثانية خمس سنوات يدرس في خلالها مواد نظرية في الطب على أيدي أساتذة مختصين، ثم تأتي المرحلة الثالثة التي تدوم سنة واحدة يتدرب في أثنائها الطالب على ممارسة مهنته في المستشفى، وعندما يثبت كفاءته في رعاية المرضى ومعالجتهم تمنح له الإجازة التي تسمح له بممارسة الطب خارج المدرسة. وأما إذا أراد الطالب أن يصير جراحا فإن عليه أن يدرس التشريح مدة سنة أخرى ويتمرس في أثنائها على فن الجراحة برفقة الأطباء الجراحين في المستشفى التابع للمدرسة. وقد شدد فريديريك في قوانينه التعليمية بساليرنو أن منع ممارسة الطب في مملكته على جميع الأشخاص من غير الحصول على إجازة تثبت تخرجهم في تلك المدرسة وفق معايير الدراسة التي ذكرت، واشترط أن تحمل الإجازة ختمه الإمبراطوري أو ختم نائبه في الإدارة، أما إذا قبض على شخص يمارس الطب من غير تلك الإجازة فإنه يعاقب بحجز ممتلكاته ثم السجن إن لزم الأمر.

ولكي يشجع فريديريك الأساتذة على البحث والتدريس فإنه رأى من الضروري أن ييسر لهم سبل الحياة ويوفر لهم الإمكانيات المادية التي توفر لهم الراحة في العمل، ولذلك فإن أهم عمل قام به اتجاههم هو أن حدد مرتباتهم التي تدفع لهم من خزينة الدولة، وجعلها نصف تالينوس (وهو عملة ذهبية تساوي عشرين حبة) في اليوم الواحد إذا مارسوا عملهم في المستشفى ولم يغادروه، وثلاثة

²⁵، المصدر السابق، ص 209-، المصدر السابق، ص 344. وحول نشوء المدرسة وتطورها راجع أيضا : Bariéty

تارينوسات إذا خرجوا إلى الأرياف والمدن البعيدة وحسبت نفقات تنقلهم على أهل المريض الذين استدعوه، أما إذا لم يتحمل أهل المريض تلك النفقات فإن المرتب يصير أربعة تارينوسات. كما حدد فريديريك للأقرباء زيارة مرضاهم بثلاث مرات في اليوم، اثنتان منها في النهار وواحدة في الليل إذا طلب المريض ذلك. ولكي وسع الإمبراطور الحماية الصحية في مملكته فإنه جعل العلاج للفقراء مجاناً. ولم يهمل فريديريك المراقبة وما لها من مزايا في تنظيم عمل المدرسة والمستشفى التابع لها، ومن أجل ذلك عين مفتشين أوكل إليهم الإشراف على تحضير الأدوية، وإلى بعضهم الآخر مراقبة الصحة العمومية لمنع انتشار الأمراض الذي غالباً ما يحدث بسبب سوء إعداد المشروبات في المحلات وإهمال الشروط الصحية في الأسواق²⁶.

نشاط الأساتذة :

لقد تحدثنا في العناصر السابقة عن أعمال رجال الدين والملوك والأمراء في بعث النهضة العلمية في أوروبا إبان العصر الوسيط، ولكننا لم نتحدث عن أعمال الأساتذة التي تقوم عليها كل الحركات العلمية وتنبعث على أساسها النهضة الثقافية والفكرية، والحديث عن الأساتذة في أوروبا في العصر الوسيط إنما هو في الواقع حديث عن شريحة اجتماعية عناصرها قليلة ومعاناتها كبيرة بسبب ظروف ذلك العصر الصعبة، ولكنهم مع ذلك فقد امتازوا بإرادة صلبة وأفق سابع في فضاء واسع سعة النهضة الكبرى التي أحدثوها ابتداء من القرن الخامس عشر، وهي نهضة تبقى أوروبا مدينة لهم فيها بقسط وافر نظراً إلى الجهود الكبيرة التي بذلوها في نشر المعرفة في المجتمع وتكوين المتعلمين الذين يمثلون الصفوة فيه ويضطلعون بمهمة بث الأفكار الجديدة الدافعة للتغيير. وقد تحدثنا عن بعض هؤلاء الأساتذة ضمن العنصر المتعلق بالملك الكارولنجي شارلمان (768-814م)، وهم ألكوين الإنكليزي وتيودولف الإسباني وبولس الشماس الإيطالي. ولكن تاريخ الأساتذة البارزين إذا كان يعود بجذوره إلى تلك الفترة فإن بدايته الحقيقية هي في القرن الحادي عشر حيث بلغت بعض المدارس مستوى عال من الازدهار وصارت تقدم تعليماً راقياً وأصبح الأساتذة الأكفاء وطلبة العلم يقصدونها من أماكن كثيرة، وذلك كان هو شأن مدارس ساليرنو وبادو بإيطاليا، ومونبولي وباريس في فرنسا.

ومن الأساتذة الذين ارتبط بهم تاريخ التعليم في أوروبا في ذلك العهد يوجد الأستاذ الفرنسي بطرس أيلارد (1079-1142م)، وكانت المدرسة التي تولى التدريس بها في باريس هي التي شكلت

النواة الأولى لجامعة باريس التي أسست في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وكان أبيلاز له تكوين فلسفي عميق ومنهج قوي في الإقناع يعتمد على قاعدة "الفهم يسبق الإيمان"، بمعنى أن الإنسان عليه أن يفهم الشيء قبل أن يؤمن به، وذلك بخلاف ما كان يقول به رجال الكنيسة من أن الإيمان يسبق الفهم. وقام أبيلاز بشرح أفكاره الفلسفية ومنهجه في التعليم في كتاب جمع فيه الأفكار التي كانت سائدة في عصره وبدت له متناقضة وغير منسجمة حتى وإن كانت تتعلق بالعقيدة المسيحية وأسماء (نعم ولا)، ولذلك اعتبر ذلك الكتاب بمثابة انتقاد مباشر للكنيسة²⁷. ولكي ينشر ذلك الأستاذ الفرنسي أفكاره فإنه كان يخرج من باريس إلى المدن البعيدة عنها ويلقي دروسه على الطلبة بها²⁸، وبلغ نشاطه في التعليم وإقبال الطلبة على الاستماع إليه أن اعتبر بعض المؤرخين عهده مرحلة جديدة في تاريخ التعليم في أوروبا، وكان من مميزاتها أن صارت المدرسة تتبع المعلم وتنتقل معه، فحيثما ذهب أبيلاز تجد ثمة مدرسة²⁹. ولكن أبيلاز لم يكن بمنأى عن مراقبة الكنيسة التي كانت ترصد أفكاره وتتابع نشاطاته، ولذلك فقد قدم مرتين للمحاكمة، أحدهما في عام 1121م والثانية في عام 1140م، ولما شعر بالخطر على حياته توجه إلى دير كلوني التابع لجماعة الرهبان البينديكتيين وانعزل فيه حتى وافته المنية بعد سنتين من محاكمته الأخيرة³⁰.

وقد كان ذلك الحديث يتعلق ببعض النماذج من الأساتذة الفرنسيين، أما الأساتذة الإنكليز فإن من أشهرهم كان روجر بيكون **Roger Bacon** (أو روجي باكون كما ينطقه الفرنسيون) (1210-1292م) الذي تخرج في جامعة أوكسفورد على يد أحد أكبر الأساتذة أيضا في ذلك العصر، وهو الأستاذ روبرت كروس تات **Robert Grosseteste** الذي ينسب إليه السبق في استدعاء أساتذة يونانيين إلى إنكلترا لتدريس اللغة اليونانية بهدف تكوين متعلمين قادرين على الإطلاع على التراث اليوناني والاستفادة منه في دفع الحركة العلمية في أوروبا. وقد تعلم روجر بيكون تلك اللغة وألف كتابا في قواعدها، وكان يعتبر أن جهل اللغات الشرقية هو الذي يشكل العائق الأكبر أمام ازدهار التعليم في أوروبا. ومما اشتهر به روجر بيكون كذلك دعوته إلى اتباع المنهج التجريبي في مختلف ميادين المعرفة، وكان يقول بأن الظواهر لا يجب فهمها كما ترى في الطبيعة أو يقرأ عنها

ديورانت، المصدر السابق، 4، ج6، ص58. يوسف (جوزيف نسيم)، نشأة الجامعات في العصور الوسطى، الاسكندرية، منشأة المعارف، 1971، ص99.

28 Verger (Jacques), Histoire des universités en France, Paris, bibliothèque historique, Privet, 1986, p 23.

29 جونو، المصدر السابق، ص109.

30 المصدر نفسه، ص94-95.

في مؤلفات اليونانيين والمسلمين، وإنما بواسطة التجربة. ويعتقد أن يكون قد اطلع على مؤلفات المسلمين في ترجمتها اللاتينية، ومنها مؤلفات ابن الهيثم حول الأشعة الضوئية، وبناء على ما تعلمه منها صاغ مناهجه في البحث ومعارفه حول الضوء وأجهزة رصد الكواكب، وكذلك انتقاداته الشديدة التي كان يوجهها للمتعلمين بشكل عام والأطباء بشكل خاص³¹.

انبعاث المدن ونشاط التجارة :

لعل ما أثبتته التاريخ والواقع المعيش في كل عصر أن أية حركة علمية مهما كانت القوة الدافعة لها والإمكانات المسخرة لها فإنها لا يمكن أن تنمو وتزدهر من غير أن تنهض لها الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المناسبة، ومن أهمها الأمن والاستقرار في الحياة العامة، والازدهار في المهن والتجارة، ونمو الإنتاج في شتى مجالات العمل. وتلك الظروف هي التي غابت في أوروبا في الفترة المبكرة من العصر الوسيط، ثم بدأت تبعث بها من جديد منذ أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلاديين، وظلت تنمو وتتسع حتى شملت أنحاء كثيرة منها في عصر النهضة الكبرى. ولكي نستجلي ذلك الموضوع فضلنا هنا أن نورد بعض الوثائق والنصوص التاريخية حول ذلك، وهي تعود إلى تواريخ مختلفة تمتد من عهد الملك الكارولنجي شارلمان (768-814م) إلى أواخر القرن الثاني عشر، وهي الفترة التي ظهرت فيها أغلب الأعمال التي مهدت للنهضة الكبرى ابتداء من القرن الرابع عشر.

نص تاريخي حول أعمال شارلمان العمرانية مقتبس من كتاب "أعمال شارلمان" لمؤلفه نوتكي دو سان غال :

"لقد صار من العادة في هذا العصر أن تفتح ورشات للعمل في كل الأنحاء بأمر من الإمبراطور، وذلك مثل بناء الجسور والسفن وإقامة الممرات وترصيف الطرق وتسويتها. ويشرف على تلك الأعمال الكونتات (حكام الأقاليم) بواسطة نوابهم ومساعدتهم. وتلك الأعمال هي في الحقيقة بسيطة، ولذلك فإن العمال الذين يقومون بها هم الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا في المجتمع. أما عندما يتعلق الأمر بالأعمال الكبرى مثل أعمال البناء فإن لا أحد من أفراد المجتمع يستثنى من المشاركة فيها، سواء كانوا كونتات أم أساقفة (حكام المدن) أم قساوسة (رؤساء الأديرة). وكمثال على ذلك عقود جسر ماينس التي اشترك في بناءها جميع الأوروبيين، ثم الكنيسة التي أنشئت في ايكس لاشييل تقرباً لله، والعمائر الأخرى التي أنجزت إلى جانبها في المدينة ذاتها لينتفع بها الناس ويسكنها الأشخاص الذين أسندت إليهم المسؤوليات، وكانت كلها تحيط بالقصر

بناء على تدبير من شارلمان البارح حتى يمكن له أن يراقب من خلال نوافذ مقر إقامته كل من يدخلون أو يخرجون (...). وكان الموظفون وجميع الناس يجدون تحت تلك المنشآت ملاجئ تحميهم من أذى الريح والثلج والمطر، ويجدون بها حتى المدافئ التي تحميهم من الجليد، وهم في جميع الحالات تحت مراقبة شارلمان النبيه³².

قرار من شارلمان حول الأمن في المملكة الكارولنجية :

"إن العقوبات والأحكام التي تتعلق باللصوص يمكن للكونتات أن ينفذهن بأمر من الأساقفة دون أن يرتكبوا في ذلك أي خطأ أو يبدوا حقداً أو انحيازاً لهم أو عليهم، وإنما عليهم أن ينفذوا تلك الأحكام بعدل تام ينم عن السلام. وإذا قبض على لص واثبتت عليه سرقة واحدة فيجب أن تقتلع له عين واحدة، وإذا ثبتت عليه سرقتان فتقتلع له عين ويقطع أنفه، وإذا ثبتت عليه ثلاث سرقات فيجب أن يحكم عليه بالإعدام. وفي حالة السرقتين التي يعاقب فيها اللص بقلع عين وقطع الأنف فإننا قررنا أن يقوم سيد ذلك العبد (يقصد اللص بطبيعة الحال) بتعويض الشخص المعتدى عليه كل ما سرق منه كما ينص عليه القانون، أما في حالة الثلاث سرقات فإن عقوبة الإعدام تلغي تعويض الأضرار التي ترتبت عن السرقة"³³.

وثيقة تتعلق بتنظيم المهن في المدن بالمملكة الكارولنجية :

"إن كل أمين يجب أن يكون له في حيه عمال مهرة في صناعة الحديد والذهب والفضة، كما يكون له إسكافيون وخراطون ونجارون ومربو الطيور وصناع الصابون وعمال يعرفون صناعة الخمر ونيذ التفاح والإجاص وكل أنواع المشروبات، كما يكون له خبازون يصنعون الحلويات لمائدتنا، وعمال يعرفون صناعة الأحبولات لصيد السمك والطيور. وعلى أمنائنا أن يعطوا لحريمنا في المناسبات المتعارف عليها ما يحتاجه من كتان وصوف وصابون وورود ومواد للطلاء وكل المواد والأدوات التي يستخدمونها"³⁴.

قرار من شارلمان حول الأمن في المملكة الكارولنجية :

"إن العقوبات والأحكام التي تتعلق باللصوص يمكن للكونتات أن ينفذهن بأمر من الأساقفة دون أن يرتكبوا في ذلك أي خطأ أو يبدوا حقداً أو انحيازاً لهم أو عليهم، وإنما عليهم أن ينفذوا تلك الأحكام بعدل تام ينم عن السلام. وإذا قبض على لص واثبتت عليه سرقة واحدة فيجب أن تقتلع له عين واحدة، وإذا ثبتت عليه سرقتان فتقتلع له عين ويقطع أنفه، وإذا ثبتت عليه ثلاث سرقات

³² ، المصدر السابق، ص52-53. Vivet.

³³ المصدر نفسه، ص42.

³⁴ المصدر نفسه، ص46.

فيجب أن يحكم عليه بالإعدام. وفي حالة السرقتين التي يعاقب فيها اللص بقلع عين وقطع الأنف فإننا قررنا أن يقوم سيد ذلك العبد (يقصد اللص بطبيعة الحال) بتعويض الشخص المعتدى عليه كل ما سرق منه كما ينص عليه القانون، أما في حالة الثلاث سرقات فإن عقوبة الإعدام تلغي تعويض الأضرار التي ترتبت عن السرقة"35.

وثيقة تتعلق بتنظيم المهن في المدن بالمملكة الكارولنجية :

"إن كل أمين يجب أن يكون له في حيه عمال مهرة في صناعة الحديد والذهب والفضة، كما يكون له إسكافيون وخراطون ونجارون ومربو الطيور وصناع الصابون وعمال يعرفون صناعة الخمر ونبيد التفاح والإجاص وكل أنواع المشروبات، كما يكون له خبازون يصنعون الحلويات لمائدتنا، وعمال يعرفون صناعة الأحبولات لصيد السمك والطيور. وعلى أمنائنا أن يعطوا لحريمنا في المناسبات المتعارف عليها ما يحتاجه من كتان وصوف وصابون وورود ومواد للطلاء وكل المواد والأدوات التي يستخدمونها"36.

35 المصدر نفسه، ص42.

36 المصدر نفسه، ص46.

مفهوم النهضة الأوروبية ومظاهر الانبعاث الممهدة لها في العصر الوسيط

إنه من الطبيعي جدا أن ينهر المؤرخ أمام عصر النهضة الأوروبية بفعل التغيير العميق والشامل الذي يلمس حدوثه في أفكار الإنسان الأوروبي وسلوكياته في تلك الفترة من تاريخ أوروبا. وليس ذلك فحسب بل أن ذلك الانبهار هو من الشدة بحيث لا يمكن أن يمر على الدارس دون أن يدفعه إلى طرح بعض الأسئلة حول الأسباب التي كانت وراء حدوث ذلك التغيير والعوامل التي أدت إليه. ونظرا إلى تسلسل الأحداث التاريخية وعلاقة بعضها ببعض فإن الإجابة عن تلك الأسئلة لا تكون بالبحث في وقائع عصر النهضة ذاته وإنما في وقائع العصر الوسيط. وذلك لأنه عندما انهارت مؤسسات الإمبراطورية الرومانية أمام هجمات القبائل البربرية ودخلت أوروبا بذلك في مرحلة تاريخية سادها تخلف عام مس الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي كما بيناه في المحاضرة السابقة، فإن مظاهر الحضارة مع ذلك لم تندثر تماما في القارة كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما بقيت بعض عناصر المجتمع تحمل منها بعض الشرارات المتقدمة والبذور الحية، واستمرت تلك العناصر الفعالة تعمل في مختلف الميادين وفي مقدمتها التعليم من أجل بعث الازدهار الحضاري في أوروبا من جديد. وبمرور السنين تفرع نشاط تلك العناصر واتسع نطاقه وتراكمت نتائجه حتى أثمر في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بشكل خاص بعصر جديد له سمات خاصة تختلف عن سمات العصر الوسيط، وهو العصر الذي أطلق عليه اسم عصر النهضة. وذلك النشاط أو العمل هو الذي اصطلاحنا عليه هنا في هذه المحاضرة باسم مظاهر الانبعاث الممهدة

للنهضة، وخصصنا له القسم الثاني من المحور ، أما القسم الأول منها فخصصناه لمفهوم النهضة الأوروبية والعصر الذي شملته، وتناولنا في قسم ثالث ولوج عصر النهضة وبعض مظاهره، وهو خاتمة المحاضرة.

أولا : مفهوم النهضة الأوروبية :

"النهضة" هي اسم مرة من فعل "نهض"، وتفيد في اللغة معنى القيام والاستعداد لأمر ما. أما من حيث هي مصطلح يرتبط بالتاريخ الأوروبي فهي تقابل كلمة « Renaissance » في الفرنسية، و « Renascimento » في الإيطالية، و « Renaissance » أو « Renascence » في الإنكليزية، ومن حيث تاريخ استخدام كلمة "النهضة" بالمفهوم الاصطلاحي المذكور في المؤلفات العربية فإن ذلك يصعب تحديده في ضوء المصادر المتوفرة لدينا، ولكننا مع ذلك نستطيع القول بأنه يعود على أقل تقدير إلى عام 1941م حيث صدرت في القاهرة ترجمة عربية أعدها محمد بدران لكتاب إنكليزي من وضع سدني دارك بعنوان "النهضة الأوروبية"³⁷. ومعنى ذلك أن الاستخدام الاصطلاحي لكلمة "النهضة" في حركة التأليف العربية ما هو إلا نتيجة من نتائج الاحتكاك الثقافي بين البلاد العربية وأوروبا. ومن الجدير بالذكر هنا أن كلمة "نهضة" بذلك المفهوم لم يأت ذكرها في الموسوعات العربية التي ظهرت قبل ذلك التاريخ وبعده، ويقصد بذلك دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري (العشرين ميلادي) لمحمد فريد وجدي (1878-1954م) (ط 1، القاهرة، 1938م، ط 3، 1971م)، ثم الموسوعة العربية الميسرة (ط 1، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م).

أما في اللغات الأوروبية فإن أول كلمة استخدمت بالمفهوم الاصطلاحي الذي نقصده فهي الكلمة الفرنسية « Renaissance » التي يعود استخدامها في اللغة الفرنسية إلى عام 1380م حيث استخدمت بمعنى الولادة مرة أخرى أو الانبعاث كما هو الأمر في بعض المعتقدات الدينية. ثم صارت ابتداء من عام 1674 أو 1675م تستخدم بمعان مختلفة، ومنها العودة والظهور من جديد، واستعادة الحيوية والنشاط كما يحدث للمجتمعات وللإنسان المريض عندما يشفى من مرضه ويستعيد صحته، وكذلك قوانين الدولة التي تلغى أو تنسى ثم يعاد العمل بها من جديد، والثقافة والفنون عندما تخبو لفترة معينة ثم تنبعث مرة أخرى. أما الاستخدام الاصطلاحي للكلمة في دراسة التاريخ الأوروبي فيعود إلى حدود عام 1825م أو بعده بضع سنوات حيث استخدمها بعض أدباء فرنسا في ذلك العهد وعلى رأسهم فيكتور هيغو (1802-1885م)، وبالزك

أورده حاطوم (نور الدين) ضمن مصادر كتابه: تاريخ عصر النهضة الأوروبية، طبعة مصورة عن طبعة عام 1968، دمشق، دار الفكر، 1405هـ/ 1985م، ص 484.

(1799-1850م)38، ثم المؤرخ جيل ميشلي (1798-1874م)، وكذلك المؤرخ السويسري جاكوب بوركارد (1818-1897م) صاحب كتاب "الحضارة في إيطاليا في عصر النهضة" الذي صدر بالألمانية في عام 1867م، وترجم إلى الفرنسية في عام 1885م³⁹. إن كلمة النهضة باعتبارها مصطلحا تاريخيا يرتبط بالتاريخ الأوروبي فتطلق على الحركة العلمية والأدبية والفنية وجميع مظاهر النشاط الفكري والازدهار الحضاري ووقائع التاريخ ذات الطابع الاجتماعي والسياسي والديني والاقتصادي التي عرفتها أوروبا في الفترة الممتدة من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر. وكانت بداية تلك النهضة في إيطاليا في القرن الرابع عشر، ثم ازدهرت بها في القرن الخامس عشر، وبعد ذلك عمت أنحاء أوروبا الغربية في القرن السادس عشر. وتلك القرون الثلاثة هي التي يطلق عليها عصر النهضة، وتعد المرحلة التي انتقلت فيها أوروبا من العصر الوسيط إلى العصر الحديث.

³⁸ Le Robert : Dictionnaire Alphabétique et Analogique de la Langue Française, Paris, Le Robert, 1977, T.5, p 783. Grand Larousse de la langue française, Paris, librairie Larousse, 1977, T.6, 5058.

³⁹ Bulumeau (Jean), La civilisation de la Renaissance, Paris, Arthaud, 1967, p وبخصوص عنوان الكتاب
Geschichtesder Renaissance in Italien, Stuttgart, (Jacob Burckhardt) الذي وضعه جاكوب بوركارد
La civilisation en Italie au temps de la أما في الترجمة الفرنسية فهو : 6° éd.Esslingen, 1920 ;
Renaissance, Paris, L.Plon, 1885. وقد اعتمدنا على الجزء الأول منه في هذه المحاضرة.

المحور الثالث

المحور الثالث

روافد النهضة الأوروبية أولا : التراث اليوناني الروماني

ي إن المتتبع لأحداث التاريخ الأوروبي في بداية العصر الحديث ليجد أن إحدى السمات البارزة التي ميزته كانت تتمثل في الانفتاح على العالم الخارجي عوض الانطواء الذي كان يعيشه في العصر الوسيط. وكان ذلك الانفتاح بمثابة وثبة كبرى حققها المجتمع الأوروبي لكي يطلع على المنجزات الحضارية للشعوب الأخرى عبر التاريخ ويستغلها في إحياء حضارته ودفع حركتها من جديد. ومن هنا جاء حديثنا في هذه المحاضرة والمحاضرة التي تليها عن روافد النهضة الأوروبية، وستناول هنا رافد التراث اليوناني الروماني الذي يشكل رصيذا معرفيا مهما ضمن الحضارة البشرية، وكان الاهتمام بإحيائه ودراسته في أوروبا هو الذي شكل المنطلق الأول للنهضة الكبرى بها، وأطلق على ذلك العمل اسم "الحركة الإنسانية Humanisme" أما القائلون عليه فأطلق عليهم اسم "الإنسانيين les Humanistes"

كان من مظاهر الحياة العامة في أوروبا في العصر الوسيط كان قطع الصلة بين المجتمع الأوروبي وبين التراث اليوناني الروماني، ويرجع ذلك بشكل عام إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية على يد القبائل الجرمانية وما ترتب عنه من انهيار لمؤسسات التعليم وغياب لكل نشاط ثقافي. كما ترجع تلك القطيعة أيضا إلى حاجز التحريم الذي أحاطت به الكنيسة ذلك التراث لتفصل بينه وبين الأوروبيين وتمنع عليهم الاطلاع عليه والاستفادة منه باعتبار أصحابه كانوا أناسا وثنيين تنبذهم المسيحية وتحارب معتقداتهم، وعلاوة عن ذلك فإن الكنيسة كانت تخاف من أن تتسرب أفكار ذلك التراث إلى نفوس المسيحيين وتفسد عليهم عقيدتهم.

ولكن ذلك الحاجز الذي فرض على التراث اليوناني الروماني طوال العصر الوسيط ما لبث مع بداية عصر النهضة أن أخذ ينهار أمام السيل الجارف من الأفكار الجديدة التي ظهرت آنذاك وتنادي بالتغيير وإرساء قواعد حياة جديدة. ذلك أن أصحاب تلك الأفكار كان من الطبيعي أن يكون منهج عملهم يعتمد على إحياء التراث القديم باعتباره القاعدة الأساس لكل بناء معرفي، خصوصا بعد أن اكتشفوا ما به من أفكار فلسفية ونظريات علمية وتحارب تاريخية تنم كلها عن عظمة الرجال الذين ينسب إليهم ذلك التراث.

أولا : التراث اليوناني

فبخصوص التراث اليوناني فإن الاهتمام به في أوروبا قد بدأ في القرن الثاني عشر حيث قام بعض علماء إيطاليا من ساليرنو وبيزا والبندقية وكذلك صقلية بترجمة عدد من الأعمال اليونانية إلى اللاتينية وشملت الرياضيات والفلسفة والطب والبيطرة وعلوم الطبيعة. وكان من هؤلاء المترجمين هونريكوس. أما

العلماء اليونان الذين ترجم لهم فكان منهم أفلاطون وأرسطو وبطليموس وإقليدس وبروكلوس وهيرون وغاليان¹.

ولكن تلك الترجمات التي تمت عن اليونانية كانت معرفتها كما يبدو محصورة في أوساط علمية ضيقة لا تتعدى بعض الباحثين الذين كانت لهم علاقة بالسلطة السياسية التي أنجزت تحت إشرافها تلك الترجمات. ولكن مع ذلك فإن تلك الأعمال المترجمة كان لها دون شك مفعول قوي في صياغة قوانين جامعة باريس التي صدرت في عام 1215م ونصت على وجوب رجوع الأساتذة بها إلى مؤلفات أرسطو في المنطق لوضع برامجهم التربوية². ومن خلال ذلك التخصيص لعلم المنطق في برامج التكوين في أقدم جامعة في أوروبا يمكن من غير شك أن ندرك مدى الأهمية التي صار الأوروبيون يولونها للتراث اليوناني في بعث الحركة العلمية في قارتهم. وذلك لأن المنطق لا يدرس باعتباره علما فقط مثل سائر العلوم وإنما يدرس باعتباره منهجا تقوم عليه الدراسة والبحث في جميع العلوم. ونظرا للدور الخطير الذي صار يؤديه المنطق الأرسطي في تعميق التكوين العلمي وشدة رد الفعل الذي نتج ضده في بعض الأوساط ذات العلاقة بالسلطة الدينية بطبيعة الحال، فإن جامعة باريس خوفا من حدوث تقهقر في مستوى الدراسة بها وتراجع في الحركة العلمية التي صارت رائدة لها على مستوى القارة إذا ما حدث تراجع عن دراسة ذلك النوع الجديد من المعرفة، فإنها ألزمت في عام 1347م الأساتذة في كلية الآداب بألا يدرسوا منهاجا آخر لطلبهم يتناقض ومنهج أرسطو كما ورد في "شرح ما وراء الطبيعة" الذي وضعه العالم المسلم ابن رشد³. وهكذا فبعدما دخل التراث اليوناني برامج التعليم في الجامعات الأوروبية فإنه من الطبيعي أن تكتشف مكوناته في مختلف مجالات المعرفة ويجذب بذلك اهتمام الأساتذة الباحثين ويصير ميدانا مستقلا في الدراسات العلمية. وذلك ما بدأ يتحقق مع مطلع القرن الخامس عشر حيث انتشرت صناعة الورق في كثير من المدن الأوروبية، واكتشفت بعد ذلك آلة الطباعة، وهما الدعامتان اللتان أسست عليها الحركة العلمية كاملة بل النهضة الأوروبية ذاتها في كامل قارة أوروبا. وهكذا بدأ الأساتذة الذين شغفوا بدراسة التراث اليوناني ينظمون رحلاتهم العلمية إلى بيزنطة ومختلف مدن اليونان الأخرى لتعلم اللغة اليونانية باعتبارها المفتاح الضروري للولوج إلى خزائن ذلك التراث، ثم جمع المخطوطات النفيسة وجلبها إلى أوروبا لدراستها وترجمتها وإثراء المكتبات الخاصة والعامة بها.

ومن الأساتذة الذين قاموا بتلك الرحلات العلمية نجد الأستاذ الإيطالي غوارينو دو فيرونا Guarino de Virona (1370-1460م) وكانت رحلته في عام 1403م، وبقي بالقسطنطينية مدة خمس

¹ Mieli (Aldo), La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale, Leiden, E.J. Brill, 1939, pp 217-219.

² يوسف (جوزيف نسيم)، نشأة الجامعات في العصور الوسطى، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1971، ص 295-296.

³ لويس (جون)، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد المالك، ط 3، بيروت، دار الحقيقة، 1978، ص 63.

سنوات، وعندما عاد إلى إيطاليا في عام 1408م حمل معه أربعة وخمسين مخطوطاً⁴. وتذكر بعض المصادر أن المخطوطات التي جمعها قد عبأها في كيسين، ولكن أحدهما ضاع منه في البحر، فاعتم لذلك كثيراً حتى أن رأسه صار أبيض في ليلة واحدة⁵، وإذا كانت تلك الرواية بما كثير من المبالغة فإن بما كذلك كثير من التعبير عن شدة ولع ذلك الأستاذ الأوروبي بالدراسات اليونانية وعن عظمة الجهود التي بذلها من أجل تحقيق أهدافه في تلك الرحلة العلمية. وقد استقر غوارينو في بداية الأمر بعد عودته إلى إيطاليا في مدينته فيرونا حيث شرع يعلم اللغة اليونانية للطلبة مجاناً، وبعد مدة بدأ يتنقل بين المدن الإيطالية الأخرى ليقوم في مدارسها بالمهمة نفسها، فرار البندقية وفلورنسا وفيرار حيث وافته المنية في عام 1460م. وكان غوارينو في أثناء ممارسته للتعليم يقوم بترجمة المؤلفات اليونانية أيضاً، وعندما توفي ترك وراءه عدداً من تلك الترجمات استفادت منه النهضة الأوروبية، وكان منها السبعة عشر مؤلفاً في الجغرافيا التي وضعها سترابون (58 ق.م-21 أو 25م)⁶. وقد كافأه البابا نيقولا الخامس على ذلك العمل بمبلغ ألف فلورين من الذهب، وكان من المفروض أن يستلم منه مبلغ خمسمائة فلورين أخرى أيضاً، ولكن وفاة البابا في عام 1455م حالت بينه وبين استلام تلك المكافأة الجديدة⁷.

ومن المؤكد أن جمع التراث اليوناني في النصف الأول من القرن الخامس عشر لم تقتصر وسائله على رحلات الطلبة والأساتذة الشغوفين بالدراسات اليونانية فقط، وإنما شملت نشاط فئة اجتماعية أخرى في إيطاليا، ويقصد بذلك فئة التجار الذين وجدوا في شراء المخطوطات من بلاد اليونان وبيعها في إيطاليا تجارة مربحة لهم مستغلين في ذلك العلاقات الوطيدة التي كانت قائمة بين المدن الإيطالية والمدن اليونانية من جهة، ثم رواج تلك المخطوطات في الأسواق الإيطالية من جهة أخرى. وكان مما دعم تلك التجارة في المخطوطات اليونانية أن العثمانيين الذين كانوا آنذاك يفتحون المدن اليونانية الواحدة بعد الأخرى في آسيا وأوروبا كانوا لا يحتفظون بالمكتبات التي استولوا عليها وإنما يبيعونها للتجار البنادقة والجنويين الذين كان وجودهم كثيفاً في بلاد اليونان عامة، وكانت القسطنطينية التي فتحت في عام 857هـ/1453م من المدن الكبرى التي كانت تزخر بتلك المكتبات. ويذكر المؤرخ اليوناني دوكاس الذي عاصر تلك الفتوحات في مؤلفه حول تاريخ الدولة البيزنطية أن المخطوطات في المدن المفتوحة كانت تنقل متراكمة داخل العربات إلى مختلف الأماكن لتباع بأزهد الأثمان⁸.

⁴ Marçay (Paoul), *Histoire de la littérature française*, T.2, Paris, J. de Giogard, 1933, p

⁵ *Biographie universelle*, nouv.éd., Paris, s.d.l., T.18.

⁶ المصدر نفسه.

⁷ Burckhardt (Jacob), *La civilisation en Italie au temps de la Renaissance*, T.1, Paris, Plon, 1885, p 233.

⁸ Fauve (Paul), *La Renaissance*, coll. Que Sais-Je ?, N° 2435, Paris, P.U.F., 1969, p 115.

وكان ذلك النشاط الواسع في نقل المخطوطات اليونانية إلى إيطاليا سواء على يد الطلبة والأساتذة أم على يد التجار هو الذي أشاع بين الإيطاليين القول بأن اليونان قد أفنيت، ولكن فرانسوا فيليليفو الذي كان هو أيضا متخصصا في الدراسات اليونانية وهاجر إلى اليونان، رد على ذلك بأن قال " لم تفن اليونان وإنما هاجرت إلى إيطاليا"⁹. ولا يقصد باليونان هنا الأرض والسكان وإنما التراث بطبيعة الحال. ولكن نقل التراث اليوناني إلى أوروبا وتشجيع الدراسات المتعلقة به في جامعات القارة لم يقتصر عملهما على الأوروبيين وحدهم وإنما شاركهم فيه اليونانيون أيضا الذين هاجروا بكثافة إلى المدن الإيطالية بشكل خاص ثم توجهوا منها إلى مدن أوروبا الأخرى، وكانت تلك الهجرة إما بسبب الضغوط التي صارت تشكلها الفتوحات العثمانية عليهم في مدنهم الأصلية أم بسبب عوامل أخرى اشتركت في صنعها العلاقات الودية التي كانت تربط الدولة البيزنطية بالدول الأوروبية. وكان أحد أشهر هؤلاء المهاجرين هو جون بيساريون (Jean Bessarion 1402-à1472م) الذي ينتسب إلى مدينة ترايزون في آسيا الصغرى. وقد هاجر مع وفد كنسي إلى إيطاليا في عام 1438م واختار مدينة روما لكي يستقر بها، وحصل من البابا على لقب كاردينال، وما لبث بعد ذلك أن جعل من بيته مقرا يلتقي به مع الطلبة الميالين للدراسات اليونانية ليعلمهم ذلك النوع الجديد من الدراسات ويضع بين أيديهم ما جمعه من مؤلفات يونانية ظلت تصل إليه مدة طويلة من بلاد اليونان، وأسس منها مكتبة ضخمة قدر عدد مجلداتها بأربعمائة واثنين وسبعين مخطوطا، ذلك بالإضافة إلى مائتين وأربعة وستين مخطوطا آخر باللغة اللاتينية. وقد أهدى تلك المخطوطات جميعا قبل وفاته إلى مدينة البندقية لتؤسس منها مكتبة عامة يرتادها القراء وينهلون من كنوزها العلمية. وقد أسست تلك المكتبة بالفعل وصارت مجموعة بيساريون تشكل قسما وفيرا منها، وهي مكتبة مارسيانا الشهيرة¹⁰. وحسب رواية أخرى فإن مكتبة بيساريون كان بها ستمائة مخطوط كلفته مبلغ ثلاثين ألف فلورين، وقد أهداها إلى دوق البندقية ليحفظ كنوزها اليونانية من الاندثار¹¹.

أما المهاجر اليوناني الثاني الذي دعم الدراسات اليونانية في إيطاليا بشكل عام وأوروبا بشكل خاص فكان جانوس لاسكاريس (Janus Lascaris 1445-1535م) الذي قدم وهو شاب برفقة والديه إلى إيطاليا بعدما سقطت المدن اليونانية وعلى رأسها القسطنطينية في يد العثمانيين. وقد اشتغل لاسكاريس بتدريس اللغة اليونانية في فلورنسا، وكان في خلال عمله يحاول أن يبين لطلبته بأن الحضارة الرومانية كان أساسها الحضارة اليونانية، ويدعم رأيه ذلك بأدلة علمية يستخلصها من المقارنة بين اللغتين

ديروانت (ول)، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، جامعة الدول العربية، سنوات مختلفة، م5، ج3، ص35.

¹⁰ ستيفن شيفيتش (ألكسندر)، تاريخ الكتاب، القسم الثاني، ترجمة محمد الأرنؤوط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1413 هـ / 1993م، ص50.

¹¹ ، المصدر السابق، ص115. Fauve.

اليونانية واللاتينية. ولكن تلك المقارنات أدت به إلى تقديم اشتقاقات لغوية لم يقبلها فقهاء اللغة من بعده. ولكن لاسكاريس مع ذلك قد استطاع أن يجلب لطلبته الدراسات المتعلقة بالتراث اليوناني ويقنعهم بأهميتها في فهم الحضارة الرومانية. وقد أعجب بأفكاره ونشاطه العلمي أمير فلورنسا لوران دو ميديتشي Laurent de Médici (1469-1492م) وعينه مبعوثاً عنه إلى السلطان العثماني با يزيد الأول في عام 1489-1490م، ثم في عام 1491-1492م، وكلفه بجلب عدد من الطلبة اليونان إلى فلورنسا ليكملوا دراستهم بها ويسهموا في الوقت نفسه في بعث الدراسات اليونانية بين مثقفها، ذلك بالإضافة إلى جمع ما أمكنه من مخطوطات يونانية نفيسة كان لاسكاريس قد أعد قائمة بها قبل رحلته، وبلغ عددها بين ثلاثمائة وأربعمائة مخطوط¹².

وفي ظل ذلك الانتشار الواسع للتراث اليوناني الذي صارت تعيشه إيطاليا بشكل خاص وأوروبا بشكل عام فإن معرفة اللغة اليونانية ودراسة العلوم التي كتبت بها صاروا في عصر النهضة يشكّلان ضرورة لا غنى عنها لكل طالب ينشد تكويناً متكاملًا في أي تخصص علمي اختاره في حياته. وذلك ما عبر عنه بكل وضوح المفكر الإنساني الهولندي الأصل إيراسموس في رسالة كتبها في مايو 1515م إلى أحد الطلبة المقربين إليه وهو مارتن دوريبوس، فقال له: "صدقني أنك إذا توجت نجاحك الباهر بمعرفة الآداب اليونانية فإنني أستطيع أن أعدك كما يعدك غيري أيضاً بمصير زاهر وأضمن بأن لا أحد من علماء اللاهوت في عصرنا يمكن أن يفوقك في المستوى... ولكنك إذا اقتنعت حسب التقاليد السائدة بالافتقار بمعرفة اللاهوت في ظل جهل اللغات وبصفة خاصة اللغة التي وصل إلينا بها الكتاب المقدس (وهي اللغة اليونانية) فإنك على خطأ تام"¹³.

ثانياً : التراث الروماني

لقد تمثل التراث الروماني الذي قامت عليه النهضة الأوروبية في الأعمال الأدبية التي أجزها بعض مشاهير الرومان وتغنوا فيها بأجناد روما وحفظوا لغتها وسجلوا أحداث تاريخها، ويقصد بهم الشعراء والخطباء وعلماء اللغة والأدب والتاريخ. وقد اشتهر منهم في ميدان الشعر فيرجيل (70 ق.م-19م) الذي يعد أكبر شاعر أنجبته روما، وقد اشتهر بأسلوبه البلاغي القوي التعبير وخياله الخصب وموضوعات قصائده الاجتماعية، مما جعله يؤثر في الأدب والثقافة الأوروبية في عهده، بل أن ذلك التأثير استمر حتى العصر الحديث ابتداء من الشاعر الإيطالي دانتي (1265-1321م) إلى الشاعر الشاعر الفرنسي فاليري (1871-1945م)،

¹² Knös (Borje), Un ambassadeur de l'Héllinisme, Janus Lascaris, Paris, Les Belles Lettres, 1945, pp 20-51.

¹³ Noulin (ch.), Erasmus, Paris, l'Enfant Poète, 1948, pp 59-60.

وفي ميدان الأدب والبلاغة فقد اشتهر بين الرومان الخطيب شيشرون Ciceron (106-43 ق.م)، أنجز أعمالاً أخرى شملت البلاغة والرسائل والفلسفة، ووصل كثير منها إلى أيدي رجال الفكر في عصر النهضة واعتبروها المصدر الأساس الذي تستقى منه اللغة اللاتينية الصحيحة¹⁴.

أما في ميدان التاريخ فقد اشتهر بين الرومان المؤرخ تيتوس ليفوس، وهو نفسه تيت ليف Tite Live عند الفرنسيين (59 ق.م-17م)، وهو واحد من أعظم رواة التاريخ ليس في العصر الروماني فقط وإنما في جميع العصور.

وكان الأديب والشاعر الإيطالي الشهير فرانسيسكو بيتاركا Francesco Petrarca وهو نفسه فرانسوا بيتارك François Petrarque عند الفرنسيين (1304-1374م) أول مفكر في أوروبا انجذب نحو دراسة التراث الروماني وحاول إحياءه في قلوب الأوروبيين ليستوعبوا أفكار الرجال الذين أنجزوه ويستفيدوا من معارفهم ويتشبعوا بقيمهم. وكان ذلك الإنجذاب من بيتارك نحو التراث الروماني قد شكل ثورة فكرية وثقافية فعلية حطمت بها الحواجز التي أقامتها الكنيسة على ذلك التراث إبان العصر الوسيط باعتباره من إنتاج الوثنيين أعداء الديانة المسيحية، وبلغ حماسه في تحقيق أهدافه أن شبه المخطوطات الرومانية النفيسة التي كانت محتزنة في مكتبات الأديرة والكنائس وقصور الأمراء وبعض الأثرياء في مختلف أنحاء قارة أوروبا بأنها "الظرفنة الأسيرة في أيدي المجانين الهمج"¹⁵. وعبر في إحدى كتاباته عن شدة ميله إلى البحث عن مؤلفات القدامى وجمعها في مكتبته فقال: "إن المؤلفات (القديمة) هي دائما موضوع مراسلاتي، وأقر بأني متلهف إليها وشغوف بها منذ شبابي. وقد يتهمني البعض بالجنون، ولكن هل يوجد جنون أكبر من البحث عن شيء لا يستطيع الإنسان استخدامه والاستفادة منه بعد العثور عليه" (ويقصد هنا عدم استطاعته هو قراءة الكتب التي جمعها بسبب كثرتها)¹⁶.

ولكن بيتارك الذي توسع في دراسة التراث الروماني واكتشف ما به من أفكار وعناصر ثقافية عميقة لم يشأ أن تكون العناية بذلك التراث عناية فردية تخضع للهواية والرغبة الشخصية، وإنما أراد أن تكون تلك العناية جماعية تشارك فيها مختلف فئات المجتمع وتكون دراسة التراث الروماني عنصراً أساسياً في تشكيل ثقافة الفرد الأوروبي، وعلى ذلك الأساس تقوم النهضة الاجتماعية وتنطلق الحركة العلمية والثقافية في القارة. ولكي يحقق ذلك الهدف فقد فكر في إنشاء مكتبة عامة في مدينة البندقية يضع فيها

¹⁴ ، المصدر السابق م 8. biographie universelle.

¹⁵ ديوراننت، المصدر السابق، م 5، ج 1، ص 139.

¹⁶ Nolhac (Pierre), Pétrarque et l'Humanisme, T.1, Paris, Librairie Honorée Champion, 1907, p 64.

ما جمعه من مخطوطات ويوفر فيها كل الظروف المناسبة لكي يرتادها القراء و يطلعوا على تلك المخطوطات ويستلهموا ما بها من علوم وآداب. وقد عبر ببيترارك عن تلك الفكرة التي كانت تراوده بخصوص ذلك المشروع والأهداف التي كان يأمل أن يحققها من بعده في رسالة بعث بها إلى دوق البندقية قال فيها بعدما شرح له الموضوع كاملا : "إننا إذا نجحنا في مشروعنا فيلني لا اجرؤ على القول بان ذلك سيكون نصرا لكم ولخلفائكم ولإمارتكم، ولكنني أستطيع أن أؤكد لكم بأنه سيكون طريقا نحو النصر، إذ أن أشياء كثيرة صارت عظيمة وباهرة مع أن بدايتها كانت متواضعة"¹⁷

غير أن ما يلاحظ على حركة إحياء التراث الروماني أنها لم تبق بمرور السنين مقتصرة على فئة المثقفين ورجال العلم فقط وإنما اتسع نطاقها حتى صارت حركة عامة شاركت فيها كل فئات المجتمع حتى صار الناس في إيطاليا بشكل خاص كأهم يعيشون العصر الروماني نفسه بمختلف عاداته وتقاليده ونمط حياته. وظهر ذلك كله في إقبال الناس على جمع الآثار الرومانية التي انتشر التنقيب عنها في أنحاء كثيرة من أوروبا وبشكل خاص في إيطاليا، وصارت تجارتها رائجة وتدر على أصحابها أرباحا كبيرة، إذ أن أبسط تحفة منها كان يصل ثمنها إلى عشرة دوقات من الذهب¹⁸. وعلاوة على ذلك صار الاعتقاد بأن الإيطالي الحقيقي هو الذي يمتد بنسبه إلى الأسر الرومانية القديمة، ومن ثمة بدأ الناس يبحثون عن أصولهم العائلية في مصادر التاريخ المختلفة ويقارنون بين ألقابهم والألقاب الرومانية التي يجدونها فيها ويجادلون دائما إيجاد أوجه الشبه بينها لكي يثبتوا أصولهم الرومانية، بل إنه كان منهم من تخلوا عن ألقابهم وأسمائهم عندما لم يجدوا فيها ما يثبت تلك الأصول، أما الأطفال حديثي الولادة فإن آباءهم صاروا منذ البداية يختارون لهم أسماء رومانية. كما أن الذوق العام في اللباس قد اتجه هو الآخر إلى الزي الروماني وأصبح ارتداء الثوب الفضفاض الذي كان يلبسه رجال الدولة الرومان ويسمى التوجة مبعثا للخيلاء ومظهرا للفخر عند الإيطاليين. ولم يتوقف الأمر في تقليد الإيطاليين لأجدادهم الرومان عند ذلك الحد وإنما بلغ أن صار الشخص الذي يدمن على شرب الخمر يرد على من ينتقده على عمله بالقول بأن الرومان لم يكونوا يشربون الماء وإنما الخمر فقط¹⁹.

ومن خلال هذا العرض حول روافد النهضة الأوروبية يتبين لنا أن تلك النهضة التي قامت على أساسها الحضارة الأوروبية الحديثة بقدر ما كانت عبارة عن سيول من الأفكار الجديدة والاكتشافات العلمية الحديثة واندفاع اجتماعي للعمل وإحداث التغيير فإنها كانت كذلك عودة إلى التاريخ ليس فقط

¹⁷ ، المصدر السابق، ص 79. Noulhac.

¹⁸ Beetano (Frantz-Funck), la Renaissance, Paris, Fayard, 1935, p 95.

¹⁹ المصدر نفسه، ص 104-105.

للبحث عما يمكن الاستفادة منه من معارف تخفيها المخطوطات بين ثناياها وإنما لتأصيل الأفكار والسلوكات الاجتماعية أيضا، وبعبارة أخرى لتأصيل الشخصية الأوروبية.

المحور الرابع

المحور الرابعة

روافد النهضة الأوروبية

ثانيا : رافد الحضارة الإسلامية

لقد سبق أن أشرنا بأن روافد النهضة الأوروبية، رافد التراث اليوناني الروماني، رافد الحضارة الإسلامية التي لم يبق اليوم أي شك حول تأثيرها في النهضة الأوروبية والحضارة الحديثة، حتى أن الأوروبيين أنفسهم صاروا يقرون بذلك التأثير، وقد صدرت في قارتهم دراسات متخصصة أنجزت لذلك الغرض¹. إذ من الثابت في التاريخ أن أوروبا في مرحلة ما قبل النهضة كانت تعيش انحطاطا حضاريا شاملا مس الثقافة والتعليم والصناعة والتجارة كما مس مؤسسات الدولة وهيكل المجتمع أيضا. أما العلم الإسلامي آنذاك فكان يعيش ازدهارا في كل تلك المجالات وبشكل خاص في ميدان التعليم، حتى أن حركة واسعة في التأليف ظهرت في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية وتناولت في منجزاتها فيضا من النظريات العلمية والفلسفية وشرحت موضوعات كثيرة تتعلق بمختلف مجالات التفكير والعمل الإنساني، سواء ورثها المسلمون عن أهل الحضارات الأخرى وطوروها أم توصلوا إلى اكتشافها بأنفسهم.

غير أن الأوروبيين في الوقت الذي كانوا يعيشون ذلك التخلف الحضاري فإنهم كانوا مع ذلك يكتشفون الحضارة الإسلامية ويحاولون الاستفادة من منجزاتها لبعث نهضتهم مستغلين في ذلك مختلف علاقاتهم السياسية والتجارة وحتى العسكرية مع العالم الإسلامي. ولكن الأوروبيين قد استخدموا مع ذلك كله طرقا أخرى كان لها فعالية كبرى في تحقيق الاستفادة من الحضارة الإسلامية، وتمثلت في إرسال الطلبة إلى المدن الإسلامية في المشرق والمغرب ليتعلموا في مدارسها ويطلعوا على منجزات علمائها، ذلك فضلا عن عملية جلب العقول الإسلامية إلى بلاطات الأمراء في المدن الأوروبية والاستفادة منهم في التدريس والترجمة والتأليف.

¹ راجع من تلك الكتب : هونكه (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا، عربه فاروق بيوض وكمال دسوقي، ط 2، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، 1969.

Vernet (Juan), Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne, tr.de l'Espagnol par Gabriel Martinez Gros, Paris, Sindbad, 1985.

Mieli (Aldo), La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale, Leiden, E.J.Brill, 1939.

إن العلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا على الرغم مما ميزها من حروب طاحنة بين الجانبين كانت ساحاتها أماكن مختلفة شملت العالم القديم في آسيا وإفريقيا وأوروبا، فإن لها ما يميزها في الجانب السياسي أيضا، ويقصد بذلك تبادل السفارات بين الجانبين. وذلك العمل هو الذي كان يقوم به بالنسبة للجانب المسلم كبار الشخصيات في الدولة من حيث المنزلة العلمية والدراية بشئون السياسة، وكان السفير عندما يتوجه إلى أحد بلاطات أوروبا يحمل معه هدايا ثمينة تكون من منتجات البلاد الإسلامية ويوزعها على الملك وحاشيته فيعرفون أنواع الصناعات الموجودة في البلاد الإسلامية، خصوصا أن بعض تلك الهدايا كانت صناعتها تتطلب خبرة علمية ومعرفة بقوانين الطبيعة المعقدة. وكان الملك ووزراؤه يجرون لقاءات مع السفير المسلم يتجاوز الحوار فيها المسائل السياسية إلى المسائل العلمية، وكان السفير المسلم في أثناء أجوبته على الأسئلة التي تطرح عليه يكشف حقيقة عن تطور العلوم عند المسلمين وازدهار إنتاجهم الفكري. وكان كل ذلك يجعل الأوروبيين يكتشفون تفوق خصومهم المسلمين عليهم ويترك آثارا عميقة في نفوسهم تدفعهم إلى تدارك عجزهم وتحسين وضعهم. وقد حفظت لنا مصادر التاريخ الإسلامية والأوروبية أخبار بعض تلك السفارات، وكان منها السفارة التي أرسلها الخليفة العباسي هارون الرشيد (170-193 هـ/786-809 م) إلى الإمبراطور الكارولنجي شارلمان (768-814 م)، وتحدثت عنها حوليات الدولة الكارولنجية لكن دون أن تذكر الخليفة المسلم بالاسم وإنما أشارت إليه بعبارة "ملك فارس"، وكان ذلك الحديث كما يلي :

"لقد مثل أمام الإمبراطور عبد الله سفير ملك فارس Roi du Perse ومعه رهبان بيت المقدس الذين كلفوا بمهمة من لدن البطريق طوماس ... فقدموا للإمبراطور شارل الهدايا التي أرسلها إليه ملك فارس وكانت تتمثل في راية وستائر منزلية لها قياس وجمال خلاب، وكانت كلها مصنوعة من قماش من الصوف، وكانت الستائر وحبالها مزخرفة بألوان مختلفة. وكان من بين الهدايا ملك فارس تلك ألبسة جديدة من الحرير غالية الثمن وروائح وعلطور ونجور، وكذلك ساعة من البرونز المذهب مصنوعة بطريقة فنية حاذقة وتعمل بواسطة الماء لتحدد الساعات الإثنتي عشرة، وعندما تكتمل كل ساعة تسقط كرات صغيرة مصنوعة من البرونز تساوي العدد الذي يشير إلى الساعة في جرس موضوع في الأسفل يرسل صوتا عندما تسقط كل كرة، ويوجد بالساعة كذلك اثنا عشر فارسا يخرجون جميعا عندما تشير الساعة إلى الثانية عشرة من اثني عشر نافذة تنغلق مباشرة بعد خروجهم بعدما كانت مفتوحة قبل ذلك. وكان في تلك الساعة أشياء أخرى كثيرة تثير الدهشة ولكن من غير الممكن التطرق إليها هنا لأن الكتابة

ستطول بنا. وكان من بين تلك الهدايا أيضا شمعدانان من البرونز لهما حجم وشكل مدهشان، وكل ذلك قدم للإمبراطور في قصره بمدينة إيكس لاشايل².

2- العلاقات التجارية

إن المتأمل للموقع الجغرافي للعالم الإسلامي ليحده من غير شك مفتوحا على أغنى المراكز التجارية في العالم ومسيطرًا على أكبر الطرق البرية والبحرية الرابطة بينها، فمن ناحية الشرق نجد المحيط الهندي حيث تتم أكبر المعاملات التجارية مع سكان الشرق الأقصى والصين والهند حيث توجد أشهر المناطق المنتجة للتوابل والعقاقير مثل جزر ملوك في المحيط الهندي وساحل ماليبار بالهند، أما من ناحية الجنوب فنجد العمق الإفريقي الغني بالذهب والملح، وأما من ناحية الشمال والغرب فنجد البحر المتوسط حيث توجد أكبر الموانئ التي يقصدها الأوروبيون لشراء مختلف السلع التي تنتج محليا أو تنقلها القوافل من المراكز الواقعة على سواحل المحيط الهندي أو من الأسواق الداخلية على بعد آلاف الكيلومترات. ومن ناحية أخرى فإن العالم الإسلامي كان أبان العصر الوسيط يعد أكبر منطقة منتجة للمواد الأولية وكذلك المواد الصناعية التي كان كثير منها يجد طريقه عبر البحر المتوسط إلى أوروبا.

ولتنظيم المبادلات التجارية بين البلاد الإسلامية وأوروبا فإن معاهدات كثيرة عقدت بين الجانبين، وقد أحصى الدكتور عطاء الله دهينة بعض تلك المعاهدات التي عقدت بين عامي 1231 و 1478م بين الأوروبيين والأمراء المغاربة من حفصيين ومن بني عبد الوادي ومرينيين وكذلك أندلسيين، فذكر منها ستا وستين معاهدة³،

وما يجب إضافته هنا بخصوص العلاقات التجارية بين أوروبا والبلاد الإسلامية هو أن الاقتصاد الإسلامي في العصر الوسيط كان له من القوة أن صارت الدنانير الإسلامية منذ نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) هي أساس المبادلات التجارية العالمية، حتى أن الأوروبيين كانوا لا يتعاملون إلا بواسطتها سواء في الأسواق الإسلامية أم في أسواقهم وأسواق روسيا وبيزنطة، وقد كشفت الحفريات الأثرية في العصر الحديث عن عملات إسلامية في جهات كثيرة من أوروبا الغربية ومنها الجزر البريطانية نفسها⁴. وكما هو معلوم فإن التجارة إذا كانت في ظاهرها تبادل للسلع ومعاملات مالية فإنها في باطنها تبادل للأفكار والثقافة والخبرات الصناعية والعلمية والمعارف المتعلقة ببعض النظم التي يقوم عليها البيع

² المصدر نفسه، ص 40.

³ Dhina (Atalah), Les Etats de l'occident musulman au 13^e, 14^e et 15^e siècle, Alger, O.P.U., 1984, pp 372-380.

⁴ الكنانى (مصطفى حسن)، أوفاء ملك إنجلترا الأنجلوساكسوني المسلم، بحث نشر في مجلة العلوم الإسلامية، قسنطينة، جامعة الأمير عبد القادر، ع 2، رمضان 1407هـ/ مايو 1987م، ص 106.

والشراء مثل المحاسبة ونظام الإدارة والمعاملات المالية، وبشكل عام فهي تبادل للحضارات. ومن ثمة فإن الدولة التي تصدر منتوجا معيناً إلى دولة أخرى فإنما هي في الواقع تصدر إليها مع ذلك حضارتها، وتلك هي حالة البلاد الإسلامية مع أوروبا في العصر الوسيط. ولعل من أبرز الأسئلة التي نسوقها هنا والمتعلقة بانتقال الخبرات الصناعية إلى أوروبا هو صناعة الزجاج التي تعلمها البنادقة في القرن الثالث عشر الميلادي من خلال علاقاتهم مع سكان الشام، وظلوا حتى القرن السابع عشر يحتفظون بأسرار تلك الصناعة لأنفسهم لكي يحتكروا إنتاجها ويسوقوه في مختلف أنحاء أوروبا⁵. كما يمكن الإشارة أيضاً إلى مادة الورق التي لم تعرف أوروبا صناعتها إلا في القرن الثالث عشر الميلادي عندما أقيم أول مصنع لها في عام 1276م في مدينة قابريانو بإيطاليا، أما قبل ذلك فإن الورق الذي كان يستخدمه الأوروبيون فكان كله يصل إليهم من البلاد الإسلامية في مصر والمغرب والأندلس، وكانت تكتب عليه عبارات عربية تتعلق بالعقيدة الإسلامية، وكان الباباوات أنفسهم يستخدمون ذلك الورق ويشاهدون عليه تلك الكتابات⁶.

وكما أن التجارة بين المسلمين قد أدت إلى انتقال الخبرات المتعلقة بالصناعة والمال من البلاد الإسلامية إلى أوروبا فإنها أدت كذلك إلى انتقال المعرفة العلمية أيضاً. والمثال الذي نسوقه هنا يتعلق بعلم الحساب الإسلامي الذي انتقل إلى أوروبا على يد التجار البنادقة، وقصة ذلك أن أحد التجار البندقيين كان يملك وكالة تجارية في مدينة بجاية ببلاد المغرب حيث كانت له علاقات تجارية ومصالح مالية مع السكان المسلمين، وحدث أن أحضر مرة ابنه معه ليتعلم فنون المبادلات التجارية، ولكن الابن، وهو ليوناردو فيبوناتشي الذي ولد في عام 1180م وجه عنايته إلى دراسة الحساب على يد أحد المعلمين في المدينة بالإضافة إلى قيامه بالأعمال التي كلفه بها والده في الوكالة، وما لبث بعد مدة أن برع في العمليات الحسابية بواسطة الأرقام العربية وصار يستعملها في ميدان التجارة، ثم واصل تعمقه في دراستها حتى اكتشف أنها تليق بدراسة الهندسة ومختلف العلوم التي تقوم معرفتها على الحساب، وبين ذلك كله في كتاب ألفه في عام 1202م لذلك الغرض شرح فيه قواعد ذلك العلم الجديد على الأوروبيين وبين الطرق التي تستخدم بها الأرقام العربية في إجراء العمليات الحسابية المعقدة، خصوصاً أن تلك الأرقام كان يستعمل معها الصفر. وفي عام 1220م ألف ليوناردو كتاباً آخر حول "الهندسة التطبيقية" استخدم فيه الجبر في حل المسائل الهندسية.

⁵ ريسلر (جاك س)، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت، ص 186.

⁶ العربي (السيد الباز)، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت، ص 227. وراجع أيضاً المحاضرة السادسة حول صناعة الكتاب في أوروبا في عصر النهضة.

إن الحروب على الرغم من الأضرار التي تحدثها والمآسي التي تنتج عنها فهي كذلك إحدى الوسائل التي تنتقل بواسطتها المؤثرات الحضارية بين الشعوب، إذ أن الجيوش لما يشتبك بعضها مع بعض فإن كل جانب منها يكتشف قوة الجانب الآخر ويعرف الأسلحة التي يحارب بها ويطلع على النظام الذي يستعمله في ترتيب الجنود والفنون التي يستخدمها في القتال، كما أن احتلال الأراضي يؤدي إلى معرفة الصناعات الموجودة بها والعمران القائم بها، كما يؤدي أيضا إلى الاستيلاء على كنوزها، كما أن الأسرى الذين يقبض عليهم يكون كثير منهم من أهل العلم والعارفين بالحرف والصناعات، وبعدها يباعون في أسواق العبيد تكتشف مهاراتهم ويستغلون أحسن استغلال من لدن أسيادهم. والمتأمل للحروب التي وقعت بين المسلمين والأوروبيين ليجد أن فتراتها كانت طويلة وساحاتها كانت واسعة حتى أنها شملت القارات الثلاث وانتهى بعضها بسقوط حواضر إسلامية كانت زاخرة بمظاهر حضارية راقية، وذلك ما حدث في صقلية التي سقطت في أيدي النورمانيين في عام 484هـ/1091م، وفلسطين وأجزاء من بلاد الشام التي سيطر عليها الصليبيون قرابة قرنين (490-690هـ/1096-1291م)، ثم الأندلس التي استمرت فيها الحرب بين المسلمين والإسبان نحو ثلاثة قرون قبل أن يسقط آخر معقل للمسلمين بها وهو مدينة غرناطة في عام 897هـ/1492م.

ومن ثمة فإن الحرب بين الأوروبيين والمسلمين قد احتلت في العلاقات بينهما من المجال ما يؤدي إلى انتقال مؤثرات حضارية كثيرة من البلاد الإسلامية إلى أوروبا، ومن ذلك صناعة النواعير التي تستخدم في استخراج المياه من الآبار لري الأراضي الزراعية، وكان الأوروبيون قد رأوها مقامة على نهر العاصي ببلاد الشام في أثناء الحروب الصليبية فنقلوها في بداية الأمر إلى ألمانيا، ومنها انتشرت في مختلف أنحاء أوروبا⁷. ولكن جنود الحملات الصليبية يعزى إليهم نقل صناعة أخرى كان لها أهمية كبرى في بعث النهضة الأوروبية ذاتها، وهي صناعة الورق التي قامت عليها هي وآلة الطباعة الحركة العلمية في القارة في ذلك العصر، وقال بعض المؤرخين بأن ذلك النقل تم على يد جنود الحملة الصليبية السابعة في عام 1254م⁸. كما يعزى إلى جنود الحملة الصليبية الأولى قبلهم في عام 1098م تقنية تربية الحمام الزاجل واستخدامه في الاتصال⁹.

⁷ ريسلر، المصدر السابق، ص 188.

⁸ Audin (Maurice), Histoire de l'imprimerie, Paris, Picard, 1972, p 39.

⁹ ، المصدر السابق، ص 245-246. Vernet.

مما لا شك فيه أن العلاقات الدبلوماسية والتجارية والحروب قد اتضحت لنا أهميتها في نقل المؤثرات الحضارية من البلاد الإسلامية إلى أوروبا، ولكنها مع ذلك تبقى وسائل يمكن عدها ثانوية أو غير مباشرة في عملية النقل تلك إذا قورنت بوسائل أخرى استخدمها الأوروبيون لذلك الغرض، وكانت لها فعالية أكبر ونتائج أفضل، وفي مقدمة تلك الوسائل كان إرسال البعثات الطلابية إلى الحواضر الإسلامية الكبرى ليدرسوا على أيدي أساتذتها العلوم المتطورة ويتعلموا منهم مناهج البحث والتأليف الأصيلة، وذلك ما لم يكن بإمكانهم تعلمه حتى في أكبر المدن الأوروبية مثل باريس في ذلك العصر. ومما يلاحظ على هؤلاء الطلبة أن تعطشهم للمعرفة كان يدفعهم إلى الهجرة من بلدانهم في إيطاليا وفرنسا وإنكلترا دون كلل أو ملل إلى الأندلس أو إلى المغرب أو المشرق حيث يتنقلون بين الحواضر الكبرى ويتعلمون في أثناء ذلك اللغة العربية لكي يستطيعوا ممارسة نشاطهم العلمي بيسر ويبحثوا عن المؤلفات ويجلسوا في حلقات الدراسة ويحتكوا بأفراد المجتمع. وكان هؤلاء الطلبة لا يكتفون بتلقي العلوم وإنما يجمعون الكتب العلمية أيضا ويعودون بها إلى بلدانهم ليثروا بها مكتباتهم. وكان هؤلاء الطلبة يفتخرون أشد الفخر بأنهم توجهوا إلى البلاد الإسلامية لطلب العلم بعدما يتسوا من إيجاد ما يشفي غليلهم من ذلك في بلدانهم الأوروبية كما عبر عن ذلك الطلبة الإنكليز بكل صراحة في مذكراتهم، ومنهم واحد يدعى دانيال أوف مورلي Daniel of Morley الذي درس في طليطلة بالأندلس في حدود القرن العاشر، وقد كان ذلك بخصوص الطلبة الإنكليز، أما الطلبة الفرنسيون فإن أشهرهم كان جرير دورياك Aurillac'Gerbert d (945-1003م) الذي ولد في مدينة أوفرن Auvergne ووسط فرنسا، وكانت هجرته إلى الأندلس ودرس في قرطبة كما درس في اشبيلية أيضا .

إن ما يحسب لأمرء وملوك أوروبا في أواخر العصر الوسيط أنهم أدركوا بشكل عام ما للأدمغة المفكرة من أهمية في بعث الحركة العلمية وازدهار الحضارة والعمران في ممالكهم، ولذلك فإنهم وجهوا عناية كبرى لتلك الأدمغة وبشكل خاص المهاجرة من أوطانها منها وكان لها خبرة كبيرة في العمل العلمي وممارسة الحرف والصناعات، وكل تلك العقول وجدت في بلاطات هؤلاء الملوك والأمراء ظروفًا ملائمة للعيش وتقديم مختلف الخدمات التي هي مؤهلة لها، وذلك ما شهد به الرحالة المسلم ابن جبير الذي زار جزيرة صقلية في عام 579هـ/1184م وتحدث عن غيلوم الثاني الذي كان حاكمًا بها آنذاك فقال بأن " له

الأطباء والتنجيم (يـ)ن، وهو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم، حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز بلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشتة حتى يسليه عن وطنه¹⁰.

وتلك السياسة الحكيمة تجاه الأدمغة الأجنبية المهاجرة من أوطانها لم تقتصر في صقلية على الملك غيلوم الثاني فقط، وإنما كانت سياسة عامة بدأها روجر الأول (1070-1101م) الذي انتهى في عهده الحكم الإسلامي في الجزيرة، ثم تبعه الملوك الذين أتوا من بعده حتى عهد فريديريك الثاني (1199-1250م) الذي ينحدر من أسرة هوهنستوفن الألمانية، إذ هو نفسه أشار إلى وجود خبراء أجنبى متخصصين في تربية البزاة على الصيد في مقدمة الكتاب الذي ألفه بنفسه حول ذلك الموضوع فقال: "لقد أنفقنا أموالا طائلة من أجل دعوة خبراء مختصين في تربية البزاة على الصيد، فجاءونا من جهات العالم الأربع وأقاموا بمملكتنا وأمدونا بالمعلومات التي هم ملمون بها فحققناها وأخذنا ما رأيناه مفيدا لنا منها في هذا العمل"¹¹.

وكما يلاحظ فإن النصين المذكورين لم يشيرا صراحة إلى وجود علماء مسلمين ضمن العلماء الذين استقبلهم ملوك صقلية في بلاطهم، غير أن عبارة "جهات العالم الأربع" التي وردت في النص الثاني منهما يمكن عدها دليلا كافيا على ذلك الوجود. وحسب الأبحاث الحديثة فإن سبب هجرة علماء المسلمين إلى أوروبا كان وراءها الاضطراب السياسي وفقدان الأمن في البلاد الإسلامية مثلما حدث في المغرب والأندلس في النصف الأول من القرن السادس الهجري (النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) حيث انتقلت السلطة من المرابطين إلى الموحدين، ثم في عهد الموحدين في القرنين السابع والثامن للهجرة (القرنين الميلاديين الثاني عشر والثالث عشر)¹². وقد مست تلك الهجرة أهل الذمة من اليهود كما مست المسلمين أيضا. ولكن ما يلفت الانتباه أن أسماء المهاجرين اليهود كثيرا منها كشف عنه الباحثون وصار معروفا في المؤلفات، بينما بقيت أسماء المهاجرين من المسلمين في معظمها مجهولة لدينا ولا نعرف منها إلا قليلا، وذلك في ضوء ما كشف عنه المؤرخ الإسباني خوان بيرني

وقصة محمد الشريف الإدريسي الذي جال أقاليم كثيرة في أوروبا وآسيا ثم التحق ببلاط روجر الثاني في باليرمو بصقلية يمكن عدها هنا شاهدا كافيا لإزالة كثير من الغموض الذي يشوب هذا الموضوع، وهي قصة معروفة لدى المؤرخين. وقد ولد محمد الشريف الإدريسي في سنة 493هـ/1106م بمدينة سبتة المغربية، وتلقى تعليمه في قرطبة حيث درس الجغرافيا والطب وعلم الفلك، ثم حمل عصا الترحال وجال أقاليم كثيرة في أوروبا الغربية ومنها إسبانيا وفرنسا وإيطاليا والجزر البريطانية، وبعد ذلك توجه إلى الشرق

10 ابن جبير، المصدر السابق، ص 330.

11 راجع الهامش رقم 2 أعلاه.

12 المصدر السابق، ص 232. Mieli.

حيث زار الحجاز والشام وآسيا الصغرى واليونان، وفي آخر الأمر توجه إلى صقلية حيث التحق بخدمة ملكها روجر الثاني (1101-1154م) وأنجز له أعمالاً جغرافية ضمنها أحدث ما حققه العلم في ذلك العصر من اكتشافات تتعلق بسطح الأرض، وكان منها خريطة صنعها من الفضة وقسم فيها سطح الكرة الأرضية المعروف آنذاك إلى سبعة أقاليم كبرى تمتد بشكل عرضي من الشرق إلى الغرب، وتبدأ عند خط الاستواء وتنتهي عند المحيط المتجمد الشمالي. وأرفق تلك الخريطة بمؤلف وصف فيه تلك الأقاليم السبعة بشكل مفصل أسماه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي ترجم إلى لغات أوروبية كثيرة، بحيث ترجمت كل دولة الجزء الخاص بها منه. وتوفي محمد الشريف الإدريسي في عام 562هـ/1166م¹³،

الاتصال بالعلماء المسلمين

مما يجذب الاهتمام في موضوع انتقال مؤثرات الحضارة الإسلامية إلى أوروبا أن بعض الملوك والأمراء الذين أدركوا عظمة الدور الذي يقوم به علماء المسلمين أنفسهم في ذلك الانتقال، لم يكتفوا بفتح أبواب بلاطهم لاستقبالهم وتوفير الرعاية المادية والمعنوية لهم للاستفادة من خبرتهم العلمية، وإنما لجئوا بالإضافة إلى ذلك إلى تنظيم مراسلات استشارية مع البعض منهم في البلاد الإسلامية ذاتها طالبين منهم إجابتهم على بعض الأسئلة العلمية التي كان يصعب على علماء أوروبا الإجابة عنها آنذاك. وذلك هو حال فريديريك الثاني ملك صقلية (1199-1250م) الذي اتصل بعدد من العلماء في المشرق والمغرب، وإن منهم كمال الدين بن يونس (ت 1242م)، والقرايبي (ت 1285م) بمصر، وابن سبعين (ت 668هـ/1271م) بالمغرب¹⁴.

جمع التراث الإسلامي وترجمته

ومما لا شك فيه أن التراث المعرفي الإسلامي قد شكل أهم ركيزة قامت عليها الحضارة الإسلامية، وهو تراث غني بالنظريات والأفكار والخبرات في علوم كثيرة وفنون مختلفة، وذلك ما اكتشفه الأوروبيون منذ زمن مبكر ووجدوه ذا أهمية كبرى في بعث الحركة العلمية وازدهار الحضارة بقارتهم، ومن ثمة اندفعوا بشغف كبير للبحث عن المخطوطات الإسلامية في شتى المعارف وجمعها من مختلف الأقطار، وبدلوا من أجل ذلك نفقات كبرى وأرسلوا حتى البعثات المختصة إلى البلاد الإسلامية تحت إشراف الحكومات من أجل البحث عن النادر من تلك المخطوطات. ومن الشواهد التي تصور لنا ذلك الإقبال من الأوروبيين على جمع المخطوطات الإسلامية، ما كان يقوم به طلبتهم الذين تابعوا دراستهم في البلاد الإسلامية أمثال الطالب الإنكليزي دانيال دو مورلي (في القرن العاشر) الذي تابع دراسته في الأندلس، وقال في مذكراته بأنه عندما قرر الرجوع إلى بلاده قام بجمع عدد من المخطوطات النفيسة وحملها معه، وكذلك

¹³ المدني، المصدر السابق، ص 211-219. العربي (إسماعيل)، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، الجزائر، د.م.ج، 1983، المقدمة.

¹⁴ المصدر نفسه، ص 66-67، 180.

فعل الطالب جيرار د كرىمونا الإيطالي الذي نسب إليه ترجمة بضع عشرات من المؤلفات الإسلامية كما أشرنا إلى ذلك في العنصر الرابع من هذا القسم من المحاضرة. ثم الرسالة التي بعث بها 20 مايو 1606م بيير دو بوى الذي اشتهرت أسرته بجمع الكتب وإنشاء المكتبات في فرنسا إلى الأستاذ سكاليجي (1540-1609م) المتخصص في الدراسات الإسلامية بجامعة ليد بهولندا، حول شراء نسخة من كتاب شرح ما وراء الطبيعة للعالم المسلم ابن رشد (520-594هـ/1126-1198م) من إحدى مكتبات روما في إيطاليا، وقال بأن ثمنها يساوي ثمانية آلاف ريال فضة.

ولكن الأوروبيين لم يكتفوا فقط بجمع التراث الإسلامي لكي يملئوا به رفوف مكتباتهم وإنما عملوا على ترجمته أيضا لكي يستفيدوا منه في بعث الحركة العلمية بقارتهم، وهو العمل الذي شرعوا فيه منذ زمن مبكر يعود إلى أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، وأسسوا من أجل ذلك مراكز (أو مجامع) متخصصة وظفوا فيها الأساتذة الذين تلقوا تكوينهم العلمي في البلاد الإسلامية وكانت لهم معرفة باللغات العربية والعبرية واللاتينية وحتى لغاتهم القومية أيضا مثل القشتالية والفرنسية والإيطالية. وكان أول مركز (أو مجمع) أسس لترجمة العلوم الإسلامية في أوروبا هو الذي أسسه بين عامي 1126 و 1152م الأسقف ريمون Raymond في مدينة طليطلة بعد انتزاعها من الحكم الإسلامي في عام 1085م. وقد جمع ذلك الأسقف عددا من العلماء الذين تلقوا تعليمهم في الأندلس بشكل خاص وأتقنوا اللغة العربية، وكان منهم هرمن الكورنثي Herman de Corinthe من ألمانيا، وأديلر البائي Adelard of Bath من إنكلترا، وجيرار الكرىموني ودومينيكو غونديسالفي Dominico Gundisalvi من إيطاليا. كما جمع ريمون إلى جانب هؤلاء المترجمين الأوروبيين مترجمين آخرين من اليهود عاشوا في البلاد الإسلامية وتلقوا تعليمهم بها، ما جعلهم أكثر اطلاعا من غيرهم على منجزات المسلمين العلمية، وكان من هؤلاء اليهودي يوحنا الإشبيلي (وهو نفسه جون دو لونا Jean de Luna) المنتصر، وإبراهام بار هية Abraham Bar Hiyya (الذي يعرف باسم ألياس صافاصوردا Alias Savasorda) وغيرهم كثيرون. وكانت ترجمة المؤلفات الإسلامية في مجمع طليطلة تتم من العربية إلى القشتالية أو إلى اللاتينية، وكان من المؤلفات ما ترجم من العبرية لأن اليهود كانوا قد ترجموها من قبل إلى تلك اللغة لكي يستفيد منها بنو دينهم. ومن المؤلفات التي ترجمت بعضها للخوارزمي وفي مقدمتها "كتاب الجبر والمقابلة"، وبعضها لابن سينا وفي مقدمتها كتاب القانون في الطب، وبعضها للكندي وثابت بن قرة والرازي والفارابي.

ثانيا : آثار الحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية

لقد كان تأثير الحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية كبيرا وشمل مجالات كثيرة تناولتها مؤلفات عديدة متخصصة وعمامة، وكان ذلك في أوروبا كما كان في البلاد الإسلامية، ومن تلك المؤلفات واحد وضعه المؤرخ الإسباني خوان بيرني بعنوان "ما تدين به الثقافة (الأوروبية) للعرب الأندلسيين"، وآخر وضعته المستشرقة الألمانية زغريد هونكه بعنوان "شمس الله (وتقصد هنا شمس المسلمين) تسطع على الغرب"، وهو كتاب مشهور ومعروف، ثم مؤلف المستشرق الفرنسي آلدو ميللي بعنوان "العلوم الإسلامية ودورها في ازدهار العلوم العالمية"¹⁵، ثم مؤلف آخر وضعه مجموعة من الأساتذة في تخصصات مختلفة في الجامعات المصرية تحت إشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة (يونسكو)، بعنوان "أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية"¹⁶. ولكن مع أن تلك المؤلفات قد تناولت الموضوع باستفاضة كبيرة، إلا أن ذلك لا يمنعنا نحن هنا لكي نضفي بعض الكمال على المحاضرة، أن نتناول بعض الجوانب منه من خلال العناصر التالية : المنهج العلمي، ثم إثراء المكتبات، وأخيرا التقنية والصناعات.

1- المنهج العلمي

مما لا شك فيه أن المنهج العلمي هو أساس انبعاث كل حركة علمية وقيام كل حضارة إنسانية، لأن به يستقيم التفكير وتنمو المعرفة وتحقق الاكتشافات وتزدهر الصناعات. والدارس لمؤلفات المسلمين ليجد أن شأوهم في ذلك كان حقا عظيما عظمة مؤلفاتهم نفسها. وكما أخذ الأوروبيون بعلوم المسلمين فقد أخذوا بمناهجهم في الدراسة والتأليف أيضا، وحل العقل بذلك عندهم محل الخيال والعاطفة في الحكم على الأشياء وقياس الحقائق، وذلك ما عبر عنه بكل صراحة أديلر أوف باث الإنكليزي الذي تلقى تعليمه في البلاد الإسلامية في نص من مذكراته حيث رد على أحد الأساتذة من زملائه الذين تلقوا تعليمهم في أوروبا، كان قد استفزه بأن طلب منه أن يناظره في موضوع يتعلق بالحيوانات، فقال له أديلر بأنه تعلم عن أساتذته العرب بأن يأخذ العقل دليلا له، بينما يرى الأوروبيين ينقادون لغيرهم كما تنقاد الحيوانات، ورفض أن يخوض معه في المناقشة¹⁷.

15 راجع الهامش 1 أعلاه.

16 القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.

17 راجع الهامش رقم 39 أعلاه.

ولكن منهج المسلمين العلمي لم يلبث في الواقع أن تشرب إلى الأوساط العلمية في أوروبا، وصار هو المنهج الذي تبنى عليه الدراسات العلمية الجادة وتساغ في ضوءه الأفكار التي تتمشى مع المنطق ويقبلها العقل، وحدث ذلك بشكل خاص عندما تسربت إلى الجامعات الأوروبية أفكار العالم المسلم ابن رشد (520-595هـ/1126-1198م) من خلال مؤلفه الشهير "تفسير ما بعد الطبيعة" الذي وضع أصله الفيلسوف اليوناني أريستو. وقد ترجم الأوروبيون ذلك المؤلف إلى اللغة اللاتينية بعد فترة وجيزة فقط من وفاة صاحبه، وأقدم نسخة من تلك الترجمة توجد اليوم في المكتبة الوطنية في باريس، وتحمل تاريخ 1243م، وهو العام الخامس والأربعون من وفاة ابن رشد، وأما طبع ذلك الكتاب فقد تم بعد بضعة أعوام فقط من اختراع آلة الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، وصدرت تلك الطبعة في مدينة بادو بإيطاليا في عام 1473م. وقد استمر طبعه بعد ذلك حتى بلغ اثنتي عشرة مرة حتى عام 1573م¹⁸.

وأفكار ابن رشد، أو الرشدية كما يسميها الأوروبيون، كل ما يقال عنها أنها منهج يرجح العقل في دراسة ظواهر الكون، ويفصل بين الفلسفة والدين، ويتناول المادة على أنها عنصر أزلي وتحتوي على قوة كامنة تدفعها باستمرار إلى الحركة والتطور، كما تناول ابن رشد الروح البشرية وتكلم عن مسألة الخلود والفناء. وتلك كلها موضوعات فلسفية لا نستطيع تناولها هنا، وهي من اختصاص الفلاسفة.

وقد وجدت تلك الأفكار منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر معقلا لها في جامعة بادو بإيطاليا، وكان رائدها فيها الأستاذ بطرس الأبنوي (ت 1303م) الذي تخرج في جامعة باريس حيث درس الفلسفة والطب¹⁹. وتوارث تلك الريادة من بعده أساتذة آخرون حتى عصر النهضة حيث ظهر الأستاذ بومبونازي (1462-1525م) الذي مثل الفكر الرشدي في مستوى عال من التطرف إلى درجة أنه أنكر بعض المسائل التي أقرتها العقيدة المسيحية ولا يستطيع العقل إثباتها، ومنها مسألة يوم البعث والمعجزات وغيرها. وكان بومبونازي يفصل بين العقل والعقيدة فصلا تاما، ويقول بأن شخصيته باعتباره مسيحيا تختلف عن شخصيته باعتباره فيلسوفا، ومن ثمة فإنه في الحالة الأولى يؤمن بخلود الروح، أما في الحالة الثانية فلا يؤمن بذلك²⁰، وكان من شدة ميله إلى استخدام المنهج العقلي أن اعتبر من المضحك أن يضرب الإنسان عرض الحائط بما يقع تحت حسه ويستدل عليه عقله، ويلجأ عوض ذلك إلى غير المنظور ويعتمد على غير المحتمل²¹، ويريد أن يقول بذلك بأنه من غير الممكن أن يبلغ الإنسان الحقيقة العلمية إذا لم يعتمد في ملاحظته للأشياء على الحس والعقل، ويلجأ بدلا من ذلك إلى الخيال والإيمان.

¹⁸ ، المصدر السابق، ص 66-73. Bouyges.

¹⁹ Morçay (Paoul), Histoire de la littérature française, T.11, la Renaissance, Paris, J.de Gigord, 1933, 61-63.

²⁰ المصدر نفسه، ص 63-64.

²¹ مجموعة من المؤلفين، تاريخ الحضارات العامة، ترجمة جماعية، بيروت، منشورات عويدات، د.تأ، ص 36-37.

وأما جامعة باريس أقدم جامعة في أوروبا، فإن الرشدية بلغت أوجها بها في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر، وذلك عندما ألزمت إدارتها في عام 1247م الأساتذة بالألا يدرسوا لطلبهم مذهباً يتناقض مع مذهب أرسطو طاليس وشارحه ابن رشد²².

ولكن المنهج العلمي الإسلامي لم يقتصر تأثيره في أوروبا على التفكير فقط، وإنما شمل مجالات أخرى تتعلق بالتعليم، ومنها دراسة الطب على سبيل المثال، التي يرجع فضل تأسيسها في أوروبا إلى أحد علماء المسلمين في القرن الحادي عشر للميلاد، وهو قسطنطين الإفريقي الذي ولد حوالي عام 406هـ/1016م بمدينة قرطاج المسلمة بالمغرب الأدنى (تونس حالياً). وقد اقتيد ذلك العالم المسلم بعد أن قبض عليه القراصنة الإيطاليون في عرض البحر إلى ساليرنو جنوبي إيطاليا، أو هاجر إليها بمحض إرادته كما تقول روايات أخرى، وأخذ سشتغل بتدريس الطب هناك ويضع فيه المؤلفات على المنهج الذي درسه به هو وغيره من أطباء المسلمين، وهو منهج اقتبس المسلمون قواعده الأولى من علماء اليونان وعلى رأسهم الطبيب غالينوس²³.

وكان استحداث نظام الإجازات في الطب أهم ما أسفرت عنه نتائج الدراسات الطبية الجديدة في أوروبا، وإن كان ذلك قد حدث بعد مرور نحو قرن من الزمن على تأسيس تلك الدراسات في ساليرنو. وتم استحداث ذلك النظام على يد الإمبراطور فريديريك الثاني حاكم صقلية (1198-1250م) في جامعة ساليرنو حيث كان يدرس قسطنطين الإفريقي نفسه. وقد قيدت القوانين التي صدرت في ذلك المجال ممارسة الطب بالدراسة في الجامعة المذكورة والإجازة على يد أساتذتها المتخصصين، واشترط في الإجازة أن تحمل ختم الإمبراطور نفسه أو ممثله في الجامعة، ونصت تلك القوانين على معاقبة كل مخالف لذلك النظام سواء بمصادرة ممتلكاته أم بسجنه إن تطلب الأمر²⁴.

ومن ساليرنو انتقل نظام الإجازات في الطب إلى جامعة مونبولي جنوبي فرنسا²⁵، ثم شمل مملكة قشتالة في الأندلس²⁶، وبعد ذلك عم مختلف أنحاء أوروبا.

وكما هو معلوم فإن نظام الإجازات في الطب كان نظاماً مستحدثاً في البلاد الإسلامية وليس موروثاً عن اليونان، وكان استحداثه على يد الخليفة المقتدر في عام 319هـ/931م عندما رفعت إليه مسألة تسبب

²² لويس (جون)، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد المالك، ط 3، بيروت، دار الحقيقة، 1978، ص 63.

²³ راجع الهامش رقم 30 أعلاه.

²⁴ Marc (Saint) et Meau (Charles), l'école de Salerne, Paris, Librairie J.B. Baillier, 1880, p 45.

²⁵ ديورانت، المصدر السابق، ص 190-191. المصدر نفسه، م 5، ج 4، ص 17.

²⁶ ، المصدر السابق، ص 274-275. Vernet.

بعض الأطباء في موت المرضى في بغداد²⁷، ومن ثمة صارت مراقبة الأطباء مناهة بالمحتسب²⁸. وقد أوردت المستشرقة زغريد هونكه نموذجاً للإجازات التي كان علماء الطب المسلمون يمنحونها لطلبتهم فلتراجع هناك.

2- إثراء المكتبة الأوروبية

إننا إذا أخذنا بعين الاعتبار الفقر المهول الذي ظلت تعانيه المكتبة الأوروبية في العصر الوسيط، ثم الأهمية الكبرى التي صار أمراء أوروبا وملوكها وأثريائها منذ عهد الملك الكارولنجي شارلمان (768-814م) يولونها للتعليم، فإننا ندرك بالضرورة الأهمية التي كان لا بد أن يحظى بها الكتاب الإسلامي في أوروبا، خصوصاً أنه كان الوسيلة التي لا يمكن أن تنازع في إشباع نهم المثقف الأوروبي في مختلف ميادين المعرفة، وكان المصدر الأساس الذي يرجع إليه الطلبة والأساتذة الباحثون في شتى التخصصات العلمية التي كانت تدرس بالجامعات. وكدليل على قولنا ذلك فإننا أشرنا إلى الأهمية التي كان يحظى بها كتاب "الحاوي" في الطب لأبي بكر الرازي في جامعة باريس، حتى أن الملك لوي الحادي عشر (1461-1483م) الذي كان شديد العناية بصحته، لما طلبه ليطلع عليه فقد أرسلته إليه إدارة الجامعة مع رسالة تقول بأنه أثنى كتاب تملكه مكتبة الجامعة، وأنه أرسل إليه تقديراً لسيادته. كما أشرنا كذلك إلى الإقبال الذي كانت تجده مؤلفات ابن رشد في الأسواق والمبالغ الباهظة التي كانت تباع بها في روما²⁹.

ونظراً إلى تلك الأهمية التي نالها الكتاب الإسلامي في أوروبا فإن الإقبال على ترجمته كان كبيراً، حتى أن الأوروبيين لجأوا إلى إنشاء مراكز متخصصة في ذلك العمل في بعض مدغم كما بينا ذلك في عنصر منفرد³⁰. وذكرنا في عنصر آخر بأن الطلبة الأوروبيين الذين زاولوا دراستهم في البلاد الإسلامية كانوا شديدي العناية بجمع المخطوطات الإسلامية وترجمة النادرة منها إلى لغاتهم، وكان منهم جيرار الكريمويني (1114-1187م) الذي ترجم بمفرده نحو ثمانين كتاباً³¹. ويعزى لليهودي المنتصر يوحنا الإشبيلي أنه ترجم بمساعدة دومينيكوس غونديمالفوس كتاباً في الحساب وثلاثة عشر كتاباً في الفلك والتنجيم، وكتاباً في الطب، وسبعة كتب في الفلسفة. كما يعزى لليهودي بلاتون دو تيفولي أنه ترجم كتباً لعالم الفلك

²⁷ هونكه، المصدر السابق، ص 235-238.

²⁸ زيادة (نقولا)، الحسبة والمحتسب في الإسلام، بيروت، 1963، 100-102. وقد ذكر المؤلف ذلك في فصل "الحسبة على الأطباء والكحالين والمجبرين والجراحين" في ضوء ما نقله عن الشيرزي (ت 583هـ/1193م) في كتابه "نهاية الرتبة في طلب الحسبة".

²⁹ راجع الهامش 19 أعلاه.

³⁰ راجع العنصر السابع من القسم الأول من هذه المحاضرة.

³¹ راجع الفقرة المتعلقة بالهامش رقم 44 من المحاضرة.

اليوناني ثيودوسيوس ولعلماء آخرين مسلمين وعلى رأسهم البتاني والعمري وأبو علي الخياط وابن الصغار³².

وكان من الطبيعي أن تترك المؤلفات الإسلامية المترجمة آثارها في الثقافة الأوروبية، وبرز ذلك بوضوح في انتقال المصطلحات العلمية العربية إلى اللغات الأوروبية، وكان منها المصطلحات المتعلقة بأسماء الأدوية والنباتات والأفلاك السماوية والصناعات وحتى بعض الأسماء الدالة على مفاهيم مالية وإدارية وأفكار اجتماعية. وكمثال على ذلك نذكر الدراسة التي أعدها بيير قيق Pierre Guigues³³ أستاذ الطب والصيدلة بالجامعة الفرنسية في بيروت حول المصطلحات العربية التي وجدها في كتاب Liber de simplisi medica الذي هو ترجمة لاتينية لكتاب "مفردات الأدوية" الذي وضعه أحد أطباء المسلمين من أصل سرياني وهو يحيى (أو يوحنا) بن سيرابيون (ق 3هـ/9م)، وقد أنجز تلك الترجمة سيمون الجنوي بمساعدة أبرهام اليهودي، ونشرت بالبندقية في عام 1497م. وقد وجد ذلك الطبيب أن أكثر من (427) مصطلحا عربيا لأسماء تتعلق بالنباتات والأدوية وردت في تلك الترجمة كما هي في اللغة العربية أو بشكل محرف بعض الشيء، ومن ذلك :

Abanus	: أبنوس (نوع من الخشب القاسي).
Achuen	: الأحقوان، وهو نوع من الزهور.
Alberas	: حب الرأس (نوع من النبات).
Alchilel melich	: إكليل الملك (نوع من النبات).
Alkitran	: القطران.
Athfar atheb	: أظفار الطيب (نوع من النبات).
Atroj	: أترج (شجر من جنس الليمون).
Balach	: البلح.
	: بصل الزير (نوع من النبات).
Asfengi Albahibi	: الإسفنج البحري.

³² ، المصدر السابق، ص 234-235. Mieli.

³³ Guigues (Pierre), Les noms arabes dans Sérapion Liber de Simplici medicina, in : J.A., vol. 5/1905, pp 473-546.

إن آثار الحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية في مجال التقنية والصناعات يعد من الموضوعات التي تستحق الاهتمام، وتناولها يبرز من غير شك مدى عمق تلك الآثار وشموليتها. وكما يبدو أن المؤرخ الإسباني خوان بيرني كان من الباحثين النادرين الذين طرقتوا ذلك الموضوع بالدراسة وبينوا بعض جوانبه غير المكشوفة أو لا يزال يغطيها بعض الغموض بسبب قلة المعلومات المتوفرة حوله. وحسب ذلك المؤرخ فإن من أبرز التقنيات التي أخذها الأوروبيون عن المسلمين توجد تقنية الحركة الدائمة باستخدام طاقتي الماء والهواء. وقد استعمل المسلمون تلك التقنية في إدارة الطاحونات واستخراج المياه من الآبار بواسطة الناعورات، وكان ذلك في المشرق كما كان في المغرب. وحسب الباحث نفسه فإن تلك التقنية تكون قد انتقلت إلى أوروبا عبر مدينة تاراغونا Tarragone شمالي الأندلس على ساحل البحر المتوسط، حيث كان المزارعون المسلمون يستخدمونها بكثرة كما أشارت المصادر الإسلامية في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد). وأما ظهور تلك التقنية في أوروبا فكان في عام 1180م بفرنسا، وفي عام 1270م بإنكلترا، وفي عام 1237م بإيطاليا، وفي عام 1274م بهولندا³⁴.

وكانت التقنية الثانية التي برع في استخدامها المسلمون ونقلها الأوروبيون عنهم تتعلق بالاتصال بواسطة الحمام الزاجل، وهي تقنية يعود تاريخ استخدامها حسب المؤرخ نفسه - إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد في بلاد الشرق، ثم تسربت إلى الأوروبيين في مرحلة محددة من تاريخهم القديم، ولكنها لم تلبث أن انقرضت عندهم كما انقرضت عندهم كما انقرضت عند الشرقيين أيضا. غير أن المسلمين في العصر العباسي استطاعوا أن يكتشفوها من جديد وأعادوا استخدامها مرة أخرى في عهد الخليفة المهدي (158 - 169هـ/ 775 - 785م) الذي أسس من أجل ذلك مركزا لتربية الحمام الزاجل، ومن ثمة صارت القوافل والحملات العسكرية في البر والبحر تزود بأعداد منه لتحمل الرسائل المتضمنة أخبار التجار والجنود إلى مراكزها في بغداد ليطلع عليها أولو الأمر. وكان من البديهي بعد ذلك أن تنتقل تربية ذلك النوع من الحمام إلى الأندلس، وصار استخدامه لا يقتصر في الاتصالات التي تخص الدولة فقط وإنما شمل حتى الأشخاص الميسورين في المجتمع الذين يريدون الاتصال بأهاليهم عندما يغيبون عنهم في المدن البعيدة. ولكن في الوقت الذي اتسع نطاق استخدام الحمام الزاجل في الاتصال بذلك الشكل في البلاد الإسلامية، فإن الأوروبيين كانوا يجهلون ذلك تماما، وبقوا على ذلك الحال حتى عام 1098م

عندما قادوا أول حملة صليبية لهم ضد المسلمين في فلسطين حيث اطلعوا على طريقة تربية ذلك النوع
من الحمام وعرفوا تقنية استخدامه في الاتصال³⁵

